شـــــذرات

مـــــن

ســـــورة الحجـــرات

كتبـــه

دكتور/ محمود عبد اللطيف صالح محمد

الأستـــاذ المساعـــد
بقســـم التفسيـــر وعلـــوم القـــرآن

المقدمة

الحمـــد لله رب العالمـــين والصلاة والسلام على أشرف الخلق وحبيب الحـــق سيدنا ومولانا محمد صلي الله عليه وسلم . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله أرسله ربه هادياً ومبشراً ونذيراً . وداعياً إلي الله بإذنه وسراجاً منيراً أرسله الله على فترة من الرسل فاخـــرج الناس من الظلمات إلي النور وهداهم بإذن ربه إلي صراط مستقيم وبعد ،،،،،

فهـــذا بحث بعنوان " شذرات من سورة الحجرات " كما تصورها سورة الحجـــرات وقـــد اقتضت طبيعة البحث أن يقسم إلي تمهيد بينت فيه الأهداف العامـــة التـــي تحـــدثت عنها السورة الكريمة ثم اتبعه بصلب البحث ويشمل الآيـــات ١١ – ١٣ مـــن السورة الكريمة . أسأل الله تعالي أن يجعله مقبولاً خالصاً لوجهة أنه سميع قريب مجيب الدعاء .

وصلي الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

مقدمه

د/ محمود عبد اللطيف صالح محمد

أستاذ مساعد بقسم التفسير وعلوم القرآن

بكلية الدراسات الإسلامية والعربية بنات

أهداف السورة العامة ومقاصدها:

لا شك أن القرآن الكريم كتاب الله نزل لهداية البشرية وتوجيهها إلي ما ينفعها في الدين والدنيا والآخرة ولا شك أيضاً أن هدايات القرآن العالية وإرشاداته السامية وأخلاقه الفاضلة مبثوثة في كل سور القرآن الكريم وسورة الحجرات سورة من سور القرآن احتوت علي ما احتوي عليه القرآن الكريم واشتملت علي ما اشتمل عليه القرآن بل أن هذه السورة الكريمة لترسم صورة ذكية وراقية لما يجب أن يكون عليه المؤمنون فيفوزوا بالسعادة الدنيوية والأخروية وهاك أهم الأهداف والمقاصد التي اشتملت عليها السورة المباركة.

فبدأت السورة الكريمة بهذا الأدب العالي والتوجيهه السامي من الله تعالي لعباده المؤمنين بأن لا يتقدموا بين يدي الله ورسوله في كل أمورهم وأقوالهم وأفعالهم وأن يجعلوا الملائكة قدوة لهم في طاعة الله والتسليم له.

قال تعالي واصفاً الملائكة:" لاَ يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُون"(١) ألا وأن طاعة رسول الله ﷺكطاعة الله تعالي " مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً "(٢).

فرسول الله ﷺأوجب الله احترامه وتوقيره قولاً وعملاً وسلوكاً ومن هنا أوجب الله علي المؤمنين ألا يبدوا رأياً أو يقترحوا اقتراحاً بين يدي الله ورسوله أو بين يدي كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وأن تكون كل أمورهم ومعاشهم وتحاكمهم إلي الله أولاً الذي خلق الخلق وهو أعلم بما يصلحه ويسعده:" أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ "(٣) وثانياً إلى رسوله ﷺالذي

---

(١) سورة الأنبياء ٢٧

(٢) سورة النساء ٨٠

(٣) سورة الملك ١٤

هــو معــدن الرحمة ومنبع الشفقة علي الناس فتشريعاته سعادة وتوجيهاته ريادة وفي طاعته تكون السيادة والقيادة.

ثم تنتقل السورة الكريمة إلي لفت نظر المؤمنين وأمرهم بهذا الأدب الجــم والتواضــع الكبير إذا هم خاطبوا رسول الله ﷺ وأنه ينبغي أن يكون صــوته أعلــي الأصوات وكلماته رائدة الكلمات وهاديتها ورفع الصوت بين يــدي النبي ﷺ فيه استخفاف وفيه تجرد من مشاعر الهيبة والإكبار وجفاف من عواطف الحب والولاء فالكلمات التي تصدر من المؤمنين في حضرته ﷺ ينبغــي أن تكــون ضــعيفة متواضعة أمام هيبته ووقاره وهم بين يديه ﷺ يشهدون أروع آيات العظمة والجلال وحديثهم إليه إنما هو حديث يفيض من قلــوب أسرها حبه وملكها توقيره وإلا فإن أعمالهم مهددة بالإحباط وإيمانهم علي شفا جرف هار.

ثــم تسوق السورة الكريمة نعياً علي هؤلاء الأعراب غلاظ القلوب جافــي المشاعر ميتى الإحساس لأنهم كانوا ينادونه باسمه مجرداً من النبوة أو الرسالة ووصفهم القرآن بانعدام العقل وعدم الصبر وفي هذا تعليم للأمة كما قال القرآن :" لاَ تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضاً قَدْ يَعْلَمُ اللَّــهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذاً فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ "(١).

ثم تحذر السورة الكريمة مجتمع المؤمنين من ترويج الإشاعات وإذاعة الأراجــيف وأنه يجب عليهم أن يتثبتوا من أي خبر ينتشر بينهم وذلك علي مــستوي الأفــراد والجماعات فما أكثر ما يلقي المنافقون واليهود في محيط المــسلمين أراجيف وأكاذيب وشائعات الأمر الذي يقضي علي المسلمين بأن يمحــصوا هذه الأخبار وألا يأخذوها مأخذ القبول والتسليم دون نظر فاحص مدقق لها حتى لا يصيبوا قوماً بجهالة دون شعور بذلك مما يعقبه الندم يقول

---

(١) سورة النور ٦٣

تعالـــي:" يَـــا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَـــةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ "(١) ثم وجهت السورة الكريمة أنظار المؤمنـــين إلي فضل الله تعالي عليهم وذلك بأن بعث فيهم رسولاً منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا قبل ذلك في ضلال مبين من أجل هذا يجب عليهم ألا يقوموا بين يدي الله ورسوله وأن ينتظروا بالأمـــر غير الجلي الذي بين أيديهم حتى يبينه الرسول لهم حتى لا يتخبطوا في الظلام وهناك مصباح سماوي مضيء بينهم يكشف كل خافية ويجلي كل خفـــي وأيـــضاً يذكرهم بنعمه عليهم وأنه تعالي هو وحده الذي حبب الإيمان إليهم بل وزينه في قلوبهم فأخرجهم بذلك من الظلمات إلي النور ومن الشرك إلـــي التوحيد وأيضاً كره إلي المؤمنين الكفر بالله تعالي وبرسوله ﷺ وبغض إلي قلوبهم الفسوق والعصيان فهم دائماً في معية الله وصحبة رسوله ﷺقال تعالـــي: " وَاعْلَمُـــوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِـــنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ۞ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ "(٢)

ثـــم تقرر السورة المباركة مبدأ في غاية الأهمية ألا وهو مبدأ الأخوة الإســـلامية فالمؤمـــنون أخـــوة علـــي اختلاف أنسابهم وألوانهم وجنسياتهم واخـــتلاف لغتهم جمع بينهم الدين وربط علي قلوبهم برباط مقدس وهو من عـــند الله تعالـــي ومـــن أجل الحفاظ علي هذا المبدأ المتين أوجب الله علي المؤمنين أن يقاتلوا جميعاً أي فئة باغية تفتت وحدتهم أو تبدد قوتهم وتذهب بريحهم يقاتلونهم حتى تفيء هذه الفئة الباغية إلي أمر الله وأن يكون العدل فـــي ذلـــك شعارهم قال تعالي: " وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْـــنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ

---

(١) سورة الحجرات٦

(٢) سورة الحجرات ٧، ٨

اللَّـــهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ۞ إِنَّمَـــا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ "(١) ثم تـــتوجه السورة المباركة إلي المؤمنين بجملة آداب وعدة أخلاق هي الذروة فـــي جلـــب الحب بين أفراد المؤمنين والمؤمنات والقضاء علي الآفات التي تقـــضي علي المجتمع وتغتال الحب فيه وتقضي علي مشاعر الإخاء والمودة بـــين المؤمنين والمؤمنات فنهي المؤمنين والمؤمنات عن السخرية بعضهم من بعض فربما كان المسخور منه خيراً من الساخر عند الله تعالي وينهاهم أيـــضاً عن اللمز و الغمز فيما بينهم ولا يتراموا بالألقاب فيما بينهم ثم تكمل الـــسورة بقية الآداب العالية والتوجيهات السامية فتحرم علي المؤمنين الظن فإن أغلبه إثم وكثيره ذنب ولا يتجسس بعضهم علي بعض ولا يغتاب بعضهم بعـــضا فـــإن هـــذا من شأنه ضرب المحبة في قلوبهم وإضعاف العلاقة بين المؤمنـــين وإن مثل من يفعل ذلك كمثل رجل يأكل لحم أخيه وهو ميت وهو منظـــر تعافه النفوس السليمة والفطر المستقيمة، قال تعالي: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَـــنُوا لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْراً مِّنْهُمْ وَلاَ نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْراً مِّنْهُنَّ وَلاَ تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلاَ تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِـــبُوا كَثِيـــراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلاَ تَجَسَّسُوا وَلاَ يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ "(٢)

ثـــم تمـــضي السورة في تقرير وإرساء مبدأ عام لكل البشر وفيه تبين أصـــلهم وأســـاس تفاضلهم فيما بينهم وهو تقوي الله تعالي وأن الله تعالي أوجـــب عليهم أن تكون العلاقة فيما بينهم مبنية علي أساس أنهم أخوة في

---

(١) سورة الحجرات ٩،١٠

(٢) سورة الحجرات ١١، ١٢

الإنسانية الكبيرة مهما اختلفت جنسياتهم وتباينت مشاربهم فيجب أن يتقاربوا بعـد أن يتعارفوا ويتبادلوا المنافع فيما بينهم بما يعود علي الإنسانية بالنفع والسعادة.

قال تعالي: " يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ "(١)

ثم تختتم السورة ببيان أن الإيمان ليس كلمة تقال هكذا بدون دليل إنما الإيمـان الحـق هـو مـا وقر في القلب وصدقه العمل وهو إقرار باللسان وتـصديق بالجنان وعمل بالأركان وهو ليس دعوي لا دليل عليها بل الدليل عليها ما ذكرت الآيات الكريمة من إيمان وتصديق قلبي ثم يعقب هذا الإيمان عمل بالجوارح من جهاد في سبيل الله بالمال والنفس وأن من يفعل ذلك فلا مـنة له علي أحد بالمنة والفضل من الله تعالي حيث أنه الهادي إلي الإيمان الموفق للأعمال فله الحمد في الأولي وفي الآخرة.

وبالجملـة فالـسورة المباركة علي قلة آياتها إلا أنها تصلح لأن تكون دسـتوراً للأفـراد والجماعـات والأمـم وتصلح لأن تكون قانوناً إن طبقه المسلمين علي مستوي الأفراد والجماعات سعدوا في الدنيا وفازوا برضوان الله يـوم القيامة وإني أختتم السورة بكلمة موجزة من الشيخ سيد قطب قال ملخصاً:

هـذه الـسورة التـي لا تتجاوز ثماني عشر آية سورة جليلة ضخمة تتـضمن حقائـق كبيـرة من حقائق العقيدة والشريعة ومن حقائق الوجود والإنسانية وأنها تكاد تستقل بوضع معالم كاملة لعالم رفيع كريم نظيف سليم عـالم يـصدر عـن الله ويتوجه إلي الله ويليق أن ينتسب إلي الله عالم نقي القلـب نظيف المشاعر عف اللسان وقبل ذلك عف السريرة عالم له أدب مع

---

(١) سورة الحجرات ١٣

الله وأدب مع رسوله وأدب مع نفسه وأدب مع غيره أدب في هواجس ضميره وفي حركات جوارحه وفي الوقت ذاته له شرائعه المنظمة لأوضاعه وله نظمه التي تكفل صيانته عالم وله أدب مع الله ومع رسول الله ﷺ يتمثل هذا الأدب في إدراك حدود العبد أمام الرب والرسول الذي يبلغ عن الرب وكذلك هو له منهجه في التثبيت والتروي في الأقوال والأفعال والاستيثاق من مصدرها قبل الحكم عليها وله كذلك منهج في نظامه وإجراءاته العلمية في مواجهة ما يقع من خلاف وفتن وقلاقل تتخلل كيانه لو تركت بغير علاج وهو عالم له آدابه النفسية في مشاعره تجاه بعض البعض وله آدابه السلوكية في معاملاته بعضه مع بعض وكذلك هو عالم نظيف المشاعر مكفول الحرمات مصون الغيبة والحضرة لا يؤخذ فيه أحد بظنه ولا تتبع فيه العورات ولا يتعرض آمن الناس وكرامتهم وحريتهم فيه لأدني مساس وهو عالم له فكرته الكاملة عن وحدة الإنسانية المختلفة الأجناس المتعددة الشعوب وله ميزانه الواحد الذي يقوم به الجميع أنه ميزان الله المبرأ من شوائب الهوي والاضطراب ثم بعد ذلك تحدد السورة معالم الإيمان الذي يجب أن يكون عليه المؤمنون خاصة في خطاب الله لهم بـ " يا أيها الذين آمنوا" ثم تكشف السورة عن ضخامة الهبة الآلهية للبشر هبة الإيمان التي يمن الله بها علي من يشاء من عباده وفق ما يعلمه فيه من استعداد[1].

---

(١) في ظلال القرآن ٢٦/٣٣٣٥- ط الشروق - بتصرف واختصار

شذرات من سورة الحجرات

قال تعالي: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْراً مِّنْهُمْ وَلاَ نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْراً مِّنْهُنَّ وَلاَ تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلاَ تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (١١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلاَ تَجَسَّسُوا وَلاَ يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ (١٢) يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (١٣) "

قوله تعالي: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْراً مِّنْهُمْ " ذكر ابن الجوزي في زاد المسير سببين لنزول هذا النجم من تلك الآية قال: [وفيه قولان]

أحدهما: أن ثابت بن قيس بن شماس جاء يوماً يريد الدنو من رسول الله ﷺ وكان به صمم فقال لرجل بين يديه أفسح فقال له الرجل قد أصبت مجلساً فجلس مغضباً ثم قال للرجل من أنت؟ قال: أنا فلان فقال ثابت أنت فلان ابن فلانة فذكر أما له كان يعير بها في الجاهلية فأغضب الرجل ونكس رأسه فنزل قوله " لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ "

والثاني: أن وفد تميم استهزءوا بفقراء أصحاب النبي ﷺ لما رأو من رثاثة حالهم فنزلت هذه الآية

وأما قوله تعالي:" وَلاَ نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْراً مِّنْهُنَّ " ففي سبب نزولها ثلاثة أقوال:

أحدهما: أن نساء رسول الله ﷺ عيرن أم سلمة بالقصر فنزلت هذه الأية قاله أنس ابن مالك.

ثانيهما: أن امرأتين من أزواج النبي ﷺ سخرتا من أم سلمة زوج النبي ﷺ وكانت أم سلمة خرجت ذات يوم وقد ربطت أحد طرفي جلبابها علي حقوها وأرخت الطرف الأخر خلفها ولا تعلم فقالت إحداهما للأخرى أنظري ما خلف أم سلمة كأنه لسان كلب قاله أبو صالح عن ابن عباس

ثالثهما: أن صفية بنت حيي بن أخطب أتت رسول الله ﷺ فقالت إن النساء يعيرنني ويقلن يا يهودية[1] بنت يهوديين فقال رسول الله ﷺ: هلا قلت أن أبي هارون وأن عمي موسي وأن زوجي محمد فنزلت الآية رواه عكرمة عن ابن عباس.

وهذه الأسباب التي ساقها ابن الجوزي وغيره يصح أن تكون كلها صحيحة والآية نزلت تعالج هذه الأسباب كلها ويصح أن تكون الآية نزلت ابتداءً بدون سبب والغرض من نزولها تعليم المؤمنين ومعالجة أخطاء وأشياء كانت موجودة وقت نزول الآية وهي ترسم للمؤمنين طريق السعادة في الدنيا والآخرة.

المعاني اللغوية:

١- قوله تعالي " يسخر " قال في المفردات (سخرت منه واستسخرته للهزء منه قال تعالي " إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ "[2] و " بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ "[3] وقيل رجل سخرة لمن سخر وسخرة لمن يسخر منه.[4]

وقال الألوسي (السخرية الاستحقار والاستهانة والتنبيه علي العيوب

---

(١) زاد المسير لابن الجوزي ١٨٢/٧- ط دار الفكر

(٢) سورة هود ٣٨

(٣) سورة الصافات ١٢

(٤) المفردات ص٢٢٧

بـــوجه يـــضحك مـــنه وقد تكون بالمحاكاة بالفعل وبالقول أو الإشارة أو الإيماء أو الضحك علي كلام المسخور منه إذا تخبط فيه أو غلط أو علي صنعته أو قبح صورته وقال البعض هو ذكر الشخص بما يكره علي وجه مـــضحك بحضرته واختير أنه احتقاره قولاً أو فعلاً بحضرته عي الوجه المذكور) [1]

٢- قـــوله تعالـــي" وَلاَتَلْمِـــزُوا أَنْفُـــسَكُمْ " قـــال الـــراغب اللمـــز الاغتياب وتتـــبع المعاب يقال لمزه يلمزه ويلمزه قال تعالي" وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ" [2]، " الَّذِينَ يَلْمِزُونَ المُطَّوِّعِينَ "[3]

" وَلاَ تَلْمِـــزُوا أَنْفُـــسَكُمْ " أي لا تلمـــزوا الـــناس فيلمزونكم في حكم من لمـــز نفـــسه ورجل لماز ولمزه كثير اللمز قال تعالي : " وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ " [4].

وقـــال الـــشوكاني (اللمز باليد والعين واللسان والإشارة والهمز لا يكون إلا باللسان) [5]

٣- قوله تعالي " وَلاَ تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ " قال في المفردات (النبذ : التقليب) [6]

وقـــال في فتح البيان (التنابز: التفاعل مع النبذ بالتسكين وهو المصدر والنـــبذ بالتحـــريك: اللقب مطلقاً حسناً كان أو قبيحاً خص في العرف بالقبح

---

(١) الألوسي ٢٢٩/٢٦- ط دار الفكر

(٢) سورة التوبة ٥٨

(٣) سورة التوبة ٥٨

(٤) سورة الهمزة أية ١

(٥) المفردات للراغب ص٤٥٥

(٦) فتح القدير للشوكاني ٧٩/٥ط بيروت

والجمع أنباز والألقاب جمع لقب وهو غير الإسم الذي سمي به الإنسان والمراد هنا لقب السوء) [1]

التفسير التحليلي للآية :

هذا النداء للمؤمنين يوجه فيه الله تعالي المؤمنين في كل عصر وجيل ومصر وقبيل إلي هذه التعاليم السامية والآداب الراقية والقيم الرفيعة السامقة والتي لو طبقها المؤمنون لعاشوا أخوة متحابين أما إذا أعرضوا عنها والعياذ بالله تعالي حل الحقد محل الإيمان ووضع الكره موضع الإحسان وانتشرت الاحن بينهم وذاعت الفرقة بين ظهرانيهم وقد ذكر الله تعالي في الآية الكريمة أحكاماً ثلاثة ابتدأ سبحانه بأعظمها أثراً وأكثرها خطراً وأشدها بلاء ثم بما يليه ثم بما يليه فقال تعالي: " لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ "

والسخرية: التحقير والاستهزاء وذلك تارة يكون باحتقار المسلم لأخيه المسلم وعدم اعتباره والاعتداد به فيصير كمن لا حرمة له ولا قيمة كما يقول بعضهم فلان أقل من أن يذكر، وأحياناً يكون بتجاهل المسلم للمسلم حتى يقضيه ويبعده حتى لا تكون له شركة في الأمور أو مشورة في الرأي واعتباره كأن لم يكن وتارة ثالثة يكون بالتضحيك منه والتشهير به وكلها صور نهي الإسلام عن أن يتصف المسلم بواحدة منها لأنها تؤدي بصاحبها إلي كره المؤمنين له في الدنيا وعذاب الله في الآخرة.

عن الحسن ﷺ " أن المستهزئين بالناس يفتح لأحدهم في الأخرة باب من الجنة فيقال له هلم فيجيء بكربه وبغمه فإذا جاء أغلق دونه ثم يفتح له باب آخر فيقال: هلم هلم ، فيجيء بكربه وبغمه فإذا جاءه أغلق دونه فما

---

(١) فتح البيان ٨٠/٩

يزال كذلك حتى أن أحدهم ليفتح له الباب من أبواب الجنة فيقال له: هلم فما يأتيه من الإياس"[1]

وهذا جزاء الساخرين بالمؤمنين وهي عقوبة من جنس الذنب المقترف كأنها توبيخ للمستهزئين وتذكير لهم بما كانوا يعملون، والذين يسخرون من المؤمنين في الدنيا يؤذونهم بغير ذنب أو جريرة وقد توعد القرآن هذا الصنف من الناس بالعذاب الأليم يوم القيامة فقال تعالي: " وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَاناً وَإِثْماً مُّبِيناً "[2] وربما سخر الساخر من المسخور منه ليضحك الناس في المجلس وهو بهذا يعتبر نفسه متفكهاً ونسي أن في هذا ذنباً عظيماً وفي الحديث إن العبد ليقول الكلمة لا يقولها إلا ليضحك بها المجلس يهوي بها أبعد ما بين السماء والأرض وإن المرأ ليزل عن لسانه أشد مما يزل عن قدميه. [3]

كما أن من الناس من يسخر من شخص رث الهيئة أو قبيح المنظر أو به عاهة فيستهزيء به ويسخر من شكله ويستهين به وما دري هذا الساخر أنه ربما كانت منزلة المسخور منه عند الله عز وجل عالية ودرجته سامية وفي الحديث " رب أشعس أغبر لو أقسم علي الله لأبره " [4]

وتنكير كلمة قوم مرتين يدل علي المعموم والشيوع لئلا يظن ظان أن النهي لقوم معينين سخروا من قوم والمعني لا ينبغي أن يسخر أي أحد من أي أحد ولا يحل أن يحتقر أي مؤمن أي مؤمن.

---

(١) البيهقي في شعب الإيمان حديث رقم ٦٧٥٧، قال الحافظ العراقى في المغني عن حمل الأسفار في الأسفار (رواه ابن أبي الدنيا باب الصمت : مرسل عن الحسن ١٢٨/٣)

(٢) سورة الأحزاب ٥٨

(٣) رواه البيهقي في شعب الإيمان.

(٤) مسلم كتاب البر – فصل الضعفاء والخاملين.

ويجـوز أن يكـون التنكيـر للتبعيض المستفاد من " من " أي لا يحل للبعض منكم أن يسخر من البعض لأن السخرية يجب أن تكون أبعد كل شيء من المؤمن للمؤمن.

وقـوله تعالي: " لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ" والقوم هو الرجال دون النساء حتـى صارت علماً عليهم ، قال الزمخشري القوم الرجال خاصة لأنهم القوام بأمر النساء واختصاص القوم بالرجال صريح في الآية وفي قول الشاعر:

ما أدري وسوف أخال أدري .... أقوم آل حصن أم نساء

وأمـا قولهم في قوم فرعون وقوم عاد: هو الذكور والإناث فليس لفظ القـوم بمـتعاط للفـريقين ولكن قصد الذكور وترك ذكر الإناث لأنهن توابع للرجال[1].

وقال الله عز وجل " لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ " ولم يقل " لا يسخر بعضكم مـن بعض " كما قال " وَلاَ يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً " وذلك النهي عما كان شائعاً بـين العـرب من سخرية القبائل بعضها من بعض فوجه النهي إلي الأقوام ويفهم منه النهي عن أن يسخر أحد من أحد بطريق لحن الخطاب وهو نهي صريح في التحريم وذلك كما قال تعالي: " فَلاَ تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا "[2] فيفهم منه عن طريق لحن الخطاب حرمة ضرب الأبوين أو الاعتداء عليهما " عَـسَى أَن يَكُونُـوا خَيْراً مِّنْهُمْ " تعليل للنهي أو لوجوبه أي: عسي أن يكون المسخور منهم خيراً عند الله من الساخرين ويجوز أن يكون المعني لا يحتقر بعضكم من بعض عسي أن يصير المسخور منه عزيزاً ويصير الساخر ذليلاً فينتقم منه كما قال الشاعر:

لا تهين الفقير علك أن .... تركع يوماً والدهر قد رفعه

---

(١) الكشاف ٣٦٦/٤

(٢) سورة الإسراء ٢٢

قال القرطبي (ولقد بلغ السلف إفراط توقيهم وتصوينهم من ذلك آن قال عمـرو بن شرحبيل لو رأيت رجلاً يرضع عنزاً فضحكت منه لخشيت أصنع مـثل الذي صنع وعن عبد الله بن مسعود البلاء موكل بالقول لو سخرت من كلب لخشيت أن أحول كلباً) [1].

وقوله تعالي: " وَلاَ نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْراً مِّنْهُنَّ " معطوف علـي النهـي السابق وفي ذكر النساء بعد القوم دليل علي أن المراد بالقوم الرجال خاصة والملاحظة مما تقدم أن النهي موجه أولاً: إلي القوم مع القوم أي الرجال مع الرجال والملاحظة مما تقدم أن النهي موجه أولاً إلي القوم مع القوم أي الرجال مع الرجال وثانياً إلي النساء مع النساء والمراد التعميم ولو كـان الرجال بالنسبة للنساء والنساء بالنسبة للرجال وإنما سلك هذا المسلك لأن الغالـب أن السخرية تكون بين أفراد الجنس الواحد فنخوة الرجال تأبي علـيهم غالـباً أن يتعرضوا للنساء بالسخرية بالغير والاهتمام وما وقر في نفـوس النساء من حياء وإجلال للرجال يصدهن ويمنعهن عادة من التعرض للسخرية من الرجال.

وقـوله تعالي: " عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْراً مِّنْهُمْ " وقوله " عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْـراً مِّـنْهُنَّ " والجملتان كما سبق للتعليل ومن باب ذكر الحكمة مع الحكم تدعمـه وتقـوية وتعـين علـي الانقياد له والتسليم به إذ المعني قد يكون المسخور منه في الواقع وعند الله متحلياً بصفات لخير والكمال حيث يتجرد الـساخر منهما ولعل في تتبع أحوال الساخرين واستقراء أحوالهم تجد أنهم فـي الغالب مجردين من كل خير منغمسين في أرذل حمآت الشر وإنك لتجد مـن صفات أهل الخير والابتعاد عن السخرية بالغير والاهتمام بتنقية النفس من الأوضار ومراقبة أحوالهم حتى يكونوا من الأطهار وتراهم يلتمسون لما يبدر من نقائص الخير جميل الأعذار وبعكسهم الساخرون المستهزئون

---

(١) القرطبى ١٠/ ٥٢٧ ط دار الغد.

وقوله تعالي " وَلاَ تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ " أي ولا يعب بعضكم بعضاً بقول أو إشارة سواء أكان علي وجه يضحك أم لا وسواء أكان بحضرة الملموز أم لا فهو أعم من السخرية التي هي احتقار الغير بحضرته وعلي هذا فالجملة من باب عطف العام علي العام.

وقيل الفرق بين السخرية واللمز بأن السخرية مبنية علي التضحيك أو الاحتقار وعدم الاعتداء أما اللمز فهو التنبيه علي العيوب وإن لم تكن علي وجه التضحيك منه أو إسقاطه عن درجة الاعتبار وقيل الفرق بينهما بأن اللمز إشارة خفية يرسلها صاحبها للتنبيه من وجه دقيق علي عيب مستكن وغير ظاهر وأما السخرية فواضحة غير مستترة.

ومن هنا كان اللمز أخف وطأة من السخرية وعلي هذا يكون العطف بين الجملتين من باب عطف الخاص علي العام مبالغة في النهي عنه حتى كأنه جنس آخر.

وقوله تعالي " وَلاَ تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ " مع أن اللامز يلمز غيره وذلك للإشارة أن من يعيب أخاه المسلم فكأنما يعيب نفسه وذلك علي حد قوله تعالي " وَلاَ تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ "[1]. وقوله تعالي " فَسَلِّمُوا عَلَى أَنفُسِكُمْ " فهو علي حد القائل فإذا رميت يصيبني سهمي ويجوز أن يكون المعني ولا تلمزوا غيركم وتعيبوا فيهم فيلمزوكم ويعيبون فيكم وذلك علي حد ما ورد في قوله تعالي " وَلاَ تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ "[2]. وكما ورد في الحديث الشريف: " أن الكبائر أن يسب الرجل والديه قيل وكيف يسب الرجل والديه؟ قال: يسب الرجل أبا الرجل فيسب أباه "[3].

---

(١) سورة النساء بعض آية ٢٩.

(٢) سورة الأنعام ١٠٨.

(٣) رواه البخاري كتاب الأدب باب لا يسب الرجل والديه

وفـــي الفـــرق بين الهمز واللمز أقوال كثيرة قال القرطبي (هما بمعني واحد وعن ابن عباس الهمزة القتات واللمزة العياب وقال أبو العاليه والحسن ومجاهد وعطاء أن الهمزة الاغتياب والطعن في وجه الرجل واللمزة اغتياب الـــرجل مـــن خلفه ومنه قوله تعالي : " وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ "[1]. وقـــال مقاتل ضد هذا الكلام أن الهامز الذي يغتاب بالغيبة واللامز هو الذي يغـــتاب في الوجه وقال قتادة ومجاهد الهمز الطعن في الناس واللمز الطعن فـــي الأنساب وقال ابن زيد الهامز الذي يهمز الناس بيده ويضربهم واللامز الذي يكسر عينه علي جليسه ويشير بعينه ورأسه وبحاجبيه وقال مرة: هما سواء)[2].

وعلي أي حال فلمز المؤمنين حرام يعرض صاحبه إلي اللمز في الدنيا والعقاب من الله في الآخرة والسلامة أن ينجيك الله من الهمز واللمز

قال الشافعي:

إذا شئت أن تحيا سليما من الردي وحظك موفور وعرضك صين

لسانك لا تذكر به عورة أمريء فكلك عورات وللناس ألسن

وعينك إن أبـــدت إليك معايباً فدعها وقل يا عين الناس أعين

فعاشر بمعروف وسامح من اعتدي وفارق ولكن بالتي هي أحسن

وقال غيره :

المرء إن كان عاقلاً ورعاً شغله عن عيوبه ورعـــــه

كما السقيم المريض يشغله عن وجع الناس كلهم وجع

---

(١) سورة التوبة ٥٨

(٢) القرطبي ٩/٦٣٧٨.

وقال ثالث:

لا تكشفن مساوئ الناس ما ستروا فيهتك الله ستراً عن مساويكا

واذكر محاسن الناس إذا ذكروا ولا تعب أحداً منهم بما فيكا

وقوله تعالي " وَلاَ تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاسْمُ الفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ "

وقال السيوطي في أسباب النزول (أخرج أصحاب السنن الأربعة عن أبي جبير بن الضحاك قال كان الرجل منا يكون الإسمان أو الثلاثة فيدعي ببعضها وفيها ما يكره فنزلت) " وَلاَ تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ" قال الترمذي حسن

وأخرج الحاكم من حديثه أيضاً قال كانت الألقاب ف الجاهلية فدعا النبي ﷺ رجلاً منهم بلقبه فقيل له يا رسول الله أنه يكرهه فأنزل الله " وَلاَ تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ " ولفظ أحمد عنه قال فينا نزلت في بني سلمة " وَلاَ تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ" قدم النبي ﷺ وليس فينا رجل إلا وله إسمان أو ثلاثة فكان إذا دعا أحداً منهم بإسمه من تلك الأسماء قالوا يا رسول الله إنه يغضب من هذا فنزلت الآية[1].

وقال الحسن ومجاهد كان الرجل يعير بعد إسلامه بكفره يا يهودي ويا نصراني فنزلت وقال قتادة وقول الرجل للرجل يا فاسق يا منافق[2].

والتنابز: التعاير والتداعي بالألقاب وخص في العرف بالمكروه منها والألقاب منها ما هو حسن ومنها ما هو سيء أما الحسن فلا بأس به فقد لقب رسول الله ﷺ بعض أصحابه فلقب عمر بالفاروق وأبا بكر بالصديق وعثمان بالذو النورين وخذيمة بذي الشهادتين وغير ذلك .

---

(١) أسباب النزول للسيوطي ص١٨٢ دار المنار

(٢) القرطبي ٦٣٧٨/٩

والألقـــاب الحسنة لم تزل شأن العرب في القديم والحديث وهي تجلب الحـــب وتـــزيد في الود بين المؤمنين أما الألقاب السيئة فإن كانت قد غلبت عليها الصفة لا العيب وهي مما لا تؤذي صاحبها فلا بأس بها.

قـــال القرطبـــي (فأما ما يكون ظاهرها الكراهة إذا أريد بها الصفة لا العيب فذلك كثير وقد سأل عبد الله بن المبارك عن الرجل يقول: حميد الطويل وســـليمان الأعمش وحميد الأعرض ومروان الأصفر فقال: إذا أردت صفته ولم ترد عيبه فلا بأس به وفي صحيح مسلم " عن عبد الله بن سرجس رأيت الأصلع يعني عمر يقبل الحجر وفي رواية الأصيلع) [1].

وعلي هذا المعني ترجم البخاري رحمه الله في كتاب الأدب من الجامع الـــصحيح في " باب ما يجوز من ذكر الناس نحو قولهم الطويل والقصير لا يراد به شين الرجل "

أمـــا الألقاب التي يراد بها تغيير صاحبها بعاهة مثلاً أو بذنب أو بدين قبل دين الإسلام فهذا حرام قطعاً فإما التنابذ بالأعمي والأعرج والأبرص مما هـــو ظاهـــر إن قصد بها التنقيص من شأن الملقب به فحرام وذلك لأن فيه كـــسراً للنفس وإحساساً لصاحب العاهة بالنقص بشيء ليس له فيه ذنب أو جريرة وما درى هذا النابز أن الله قادر علي أن يعافي صاحب العاهة ويبتليه والله قادر علي ذلك أيضاً مادري هذا النابز أن صاحب هذه العاهة ربما كانت العاهة سبباً في سعادته في الدنيا والآخرة ربما كانت دافعاً له علي طاعة الله والـــصبر علـــي أمـــره بمـــا يـــوجب لـــه الجـــنة فـــي الآخرة وهي الفوز المقيم الدائم الذي لا يحول ولا يزول.

وأما التنابز بالذنوب فهذا أيضا فحرم كقول القائل يا زاني ، يا سارق، يـــا فاسق ، يا يهودي أو يا يانصراني (أخرج ابن جرير عن ابن عباس أنه

---

(١) القرطبى ٦٣٧٨/٩

قال: التنابز بالألقاب أن يكون الرجل عمل السيئات ثم تاب منها وراجع الحق فنهي الله تعالي أن يعير بما سلف من عمله . وعن ابن مسعود هو أن يقال: لليهودي أو النصراني أو المجوسي إذا اسلم يا يهودي أو يا ينصراني أو يا مجوسي) [1]. ولعل مأخذه ما روي أنها نزلت في صفية بنت حيي أتت النبي ﷺ فقالت إن النساء يقلن لي يا يهودية بنت يهودية فقال لها هلا قلت: إني أبي هارون وعمي موسي وزوجي محمد ﷺ[2].

وأما الترامي بالكفر بين المؤمنين فهو محرم قطعاً فقد حرم الإسلام ذلك واعتبره أمراً خطيراً فالكفر حاصل لا محالة وأما القاذف أو المقذوف قال ﷺ " من قال لأخيه يا كافر باء بها إحداهما إن كان كما قال وإلا رجعت عليه"[3]. وفي رواية من دعا رجل بالكفر أو قال: عدو الله وليس كذلك إلا حار عليه "[4].

والتكفير مرض نفسي خطير يدل علي ظلام قلب صاحبه وانطماس بصيرته وضيق عقله وعطنه لأن الإيمان أو الكفر أمر قلبي لا اطلاع لأحد عليه ولكن يحكم عل الناس بالظاهر والله أعلم بالسرائر.

يقول ﷺ " ثلاث من أصل الإيمان الكف عمن قال لا إله إلا الله لا نكفره بذنب ولا نخرجه من الإسلام بجهل "[5]. ويجب علي المسلم إذا رأي من أخيه المسلم شيء يحتمل الكفر والإيمان يجب عليه أن يحسن به الظن ويحمل

---

(١) البخاري – كتاب الأدب – باب من كفر أخاه بغير تأويل فهو كما قال.

(٢) رواه الترمذى فى المناقب رقم ٣٨٩٤.

(٣) البخاري كتاب الأدب – باب من كفر أخاه بغير تأويل فهو كما قال.

(٤) البخاري كتاب الأدب – باب ما ينهي عن السباب واللعان

(٥) رواه أبو داود كتاب الجهاد – باب ف الغزو مع أئمة الجور وسكت عنه.

عملـــه علـــي الإيمان" قال الإمام مالك : (من صدر عنه ما يحتمل الكفر من تسعة وتسعين وجهاً ويحتمل الإيمان من وجه حمل على الإيمان) [1].

يقـــول الأســـتاذ الدكـــتور محمود مهني: (ولقد ابتليت الأمة الإسلامية بفـــريق مـــن الناس يتخذون هذا التنابذ ديناً لهم وطريقاً ، فما أسهل وصف المـــسلم بالكفـــر أو بالفسوق أو النفاق حتى أصبحت تلك الصفات معلماً من معـــالم حياته ، وعلم تلقوه من شياطينهم الذين يوحون إليهم تلك المسميات ناسين أن خطرها عظيم وجرمها عند الله كبير) [2].

وقفة تأمليية في الآية الشريفة

قد ورد في الآيات النهي عن ثلاثة من الذنوب والمعاصي.... هي :

١) السخرية ٢) اللمز ٣) التنابز بالألقاب

وهي مرتبة من الأشد إلي الخفيف ثم إلي الأخف تبعاً لثقل كل ذنب علي حـــده فـــبدأ بالـــسخرية وهي أعظم الثلاثة ذنباً وأشدها خطراً، وهي مسار العـــداوات ودواعيه في الغالب متوفرة فقد يدعو إل السخرية مجرد التظرف والرغبة في جلب السرور عل الحاضرين بضحك من أحدهم غافلاً عما يلحق هذا المضحوك منه من غيظ كبير ربما أدي إلي شر أكبر، ثم ثنا بالنهي عن اللمـــز لأن صاحبه قد يستخف أمره لما فيه من الخفاء فيبدر منه علي جهة العجلة والسرعة ثم ختمها بأخفها وهو التلقيب بالمكروه الذي قد يتسامح في شأنه.

وهكذا نرى أن القرآن يريد أن يقتلع كل بذور الشر والعداوة من أصلها توثيقاً للمحبة بين أفراد المؤمنين وجماعتهم، ومما يزيد نفسك إعجاباً بأسلوب النظم الكريم أن الله تعالي عبر عن النهي الأول بقوله: " لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ" لأن المسخور منه

---

(١) فقه السنة – السيد سابق – ٤٥٣/٢

(٢) الآداب الإسلامية في سورة الحجرات – أ.د / محمد مهني – ص١٦٩– ط الأمانة

عــادة يكون لأنه قد جعل في نظر الساخرين فريقاً وحده ونصب هدفاً لعبثهم ولعبهم فكأنه صار أجنبياً منه.

وقــال في الثاني " وَلاَ تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ " لأن اللامز والملمزو في غالب الخطاب جمعهم في مجلس واحد ويكون في زمرة واحدة ثم لا يلزم من لمزه من واحد أن يستحضر هو ما يلمزه به فقد لا يتيسر له ذلك أو لا يستطيع أن يلمــزه بمــثل لمزه. أما التنابز بالألقاب فهو إذا فتح بابه سري بينهم مقابلة المثل بالمثل فقلما يخلوا واحد من أن يعرف بلقب يكرهه فإن لم يكن استطاع أن يبتكر له لقباً من جنس ما يقول وذلك ما تفيده صيغة التنابز.

وقوله: " بِئْسَ الاسْمُ الفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ " إما أن يكون تعليلاً لما تقدم مــن النهي عن السخرية واللمز والتنابز والمراد " الاسم " ما سبق ذكره من السخرية واللمز والتنابز بالألقاب والمراد من الجملة القرآنية نهي المؤمنين أن يــصفوا إخــوانهم فــي الــدين بالفــسوق بعــد أن اتصفوا بالإيمان . والمخصوص بالذنب في الجملة محذوف تقديره بأس الفعل فعلكم أن تصفوا المــسلمين بمــا يكــرهون وبما يخرجهم من صفات المؤمنين الصادقين قال الزمخــشري : (الاسم هنا بمعني الذكر من قوله : فلان طار اسمه في الناس بالكــرم أو باللــوم كما يقال طار ثناؤه وصيته كأنه قيل: بأس الذكر المرتفع للمؤمنين أن يذكروا بالفسوق) [1].

وقــوله تعالــي " بِــئْسَ الاسْمُ الفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ " تعقيب جميل بعد المناهــي الــثلاثة " لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ " ، " وَلاَ تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ " ، " وَلاَ تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ" فالجملة إيقاظ لشعور الإيمان في النفوس وتنويه بما ينبغي أن يثيره الإيمان في تجميلهم، والتنبيه علي ما يجب عليهم أن يسلكوه وفاء بحقــه من الابتداع عن الفسوق والعصيان. فما أقبح أن يشين المسلم كماله بنقيــصة فالنقيصة في ذاتها ذميمة وهي ممن تحلي بالإيمان وتجمل باليقين أقــبح فكــان المعني: فبئست الحالة أن تعرضوا أنفسكم للتسمية بالفاسقين

---

(١) الكشاف ٤/٣٧٠

بـــسبب مخالفتكم ما نهاكم عنه بعد أن تشرفتم بتسمية المؤمنين فالاسم هنا بمعني الذكر والشهرة كما يقال: طار اسمه في الآفاق أي اشتهر وعرف.

ويقـــول الإمام الأكبر أ.د / محمد سيد طنطاوي : (ويصح أن يكون المراد من الآية الكريمة نهي المؤمنين عن ارتكابهم لهذه الرذائل يؤدي بهم إلي الفسوق والخروج عن طاعة الله تعالي بعد أن اتصفوا بصفة الإيمان وقد أشـــار إلي هذا المعني الإمام ابن جرير فقال: ما ملخصه : يقول تعالي: ومن فعـــل ما نهينا عنه وتقدم علي معصيتنا بعد إيمانه فسخر من المؤمنين ولمز أخاه المؤمن ونبزه بالألقاب فهو فاسق بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان يقول: فلا تفعلوا فتستحقوا إن فعلتموه أن تسموا فساقاً بعد أن وصفتم بالإيمان) [1].

وهـــناك وجـــه آخر في الآية نبه عليه الإمام الرازي واستحسنه وهو حرى بالاستحسان والقبول. قال الإمام الرازي: (هذا من تمام الزجر كأنه قال يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم ولا تلمزوا ولا تنابزوا فإنه إن فعل يفـــسق بعـــد ما آمن والمؤمن يقبح منه أن يأتي بعد إيمانه بفسوق فيكون التقدير بئس الفسوق بعد الإيمان) [2].

وقـــوله تعالي " وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ " تأكيد للتحذير لأنه سمي هذه المخالفات ظلما وتوسيط اسم الإشارة لزيادة تميزهم تفظيعاً لحالهم وللتنبـــيه بل أنهم استحقوا قصر الظلم عليهم لأجل ما ذكر من الأوصاف قبل اسم الإشارة، وأيضاً في الآية فتح باب التوبة للخروج من تلك المعاصي التي قد يقع فيها المسلم علي غرة، والآية حض علي التوبة والإخلاص من هتيك الآثـــام لأن من فتح أمامه باب التوبة من الذنب ثم لم يغتنم الفرصة بالفرار

---

(١) التفسير الوسيط – سورة الحجرات ص٨١

(٢) مفاتيح الغيب ١٤/ ٣٩٠– ط دار الغد

منه فهو الظالم لنفسه كما قال تعالي:"وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ"(١).

وهؤلاء المرتكبون لتلك المعاصي الماضية ظلموا أنفسهم لأنهم وضعوا المعصية موضع الطاعة وتعريض النفس للعذاب وقوله تعالي " وَمَن لَّمْ يَتُبْ " بالأفراد وقوله " فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ " بالجمع مراعاة اللفظ ومراعاة للمعني.

وقوله تعالي " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلاَ تَجَسَّسُوا وَلاَ يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ "

بعد أن يبين الله تعالي في الآية السابقة ما يجب في حق المسلم الحاضر من ترك السخرية به واللمز عليه والتنابز معه بالألقاب شرع يبين في هذه الآية ما تجب مراعاته في حق المسلم الغائب الذي هو بعيد عن المجلس وقد صدر هذا الأمر بالنداء بوصف الإيمان وقد اشتمل النهي على ثلاثة أشياء

١- الظن السيء ٢- التجسس ٣- الغيبة

وهو ترتيب في المناهي عجيب الشأن بديع النظم متدرج مع الطبع متوافق مع النفس فإن أول بوادر الشر سوء الظن المبني علي تأويل سيء وهو الخطوة الأولي ثم تأتي الخطوة الثانية وهي تثبيت الظن وتدعيمه بتتبع حركاته وسكناته في الخلوة و الجلوة بداعي تثبيت الظن الذي ظنه والتوهم الخبيث الذي ملأ قلبه وهو قطعاً سيعثر علي شيء يقوي به سوء ظنه وخبث طويته وهو التجسس ولو كان منصفاً لعلم أن ما اطلع عليه قلما يخلو هو وأمثاله منه ولو كان قلبه سليماً من سوء الظن الذي استنبطه من ناحيه

---

(١) سورة النحل ١١٨

أخـيه ما بني كل هذه التصورات ثم تأتي الخطوة الثالثة المبنية علي الثانية وهـو الخطوة الخطيرة التي لا تقتصر خطورتها علي صاحبها فقط بل تتعداه إلـى المجـتمع كله فتنتشر فيه الكره والحقد وهي مرحلة الغيبة وهي التي تـشيع الفاحـشة بـين المؤمنـين فتؤدي إلي التدابر والتقاطع وتفاقم الشر واستحكام الضر.

قـوله تعالي " اجْتَنِبُوا " أي كونوا في جنب وسوء الظن والذي هو إثم ف يجنب آخر، وهو افتعال من جنبه وجنبه إذا أبعده أي جعله جانباً آخر أي ابتعدوا وهو أسلوب عال دقيق حيث قال " اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ " ولم يقل اجتنبوا الظن فإن من الظن ما هو مطلوب في دفع الأذي كما سيأتي

قـال القاضي أبو يعلي هذه الآية تدل علي أنه لم ينه عن جميع الظن والظن علي أربعة أضرب:-

١- **محظور:** وهـو سـوء الظن بالله تعالي والواجب حسن الظن بالله وكذا يدخل في الظن المحظور سوء الظن بالمسلمين الذين ظاهرهم العدالة.

٢- **ظن مأمور بـه:** فهو لم ينصب عليه دليل يوصل إلي العلم به وقد تعبدنا بـه من قبول شهادة العدول وتحري القبلة وتقويم المستهلكات وأروش الجنايات التي لم يرد بمقاديرها توقيف فهذا وما كان من نظائره قد تعبدنا فيه بإحكام غالب الظنون.

٣- **ظن مباح** مـثل الشاك في الصلاة إذا كان إماماً أمره النبي ﷺ بالتحري والعمـل علي ما يغلب علي ظنه وإن فعل كان مباحاً وإن عدل عنه إلي البناء علي اليقين كان جائزاً روي أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ " إذا ظننتم فلا تحققوا"[1]. وهذا من الظن الذي يعرض في قلب الإنسان في

---

(١) فتح البارى ١٣/ ٩٣.

أخيه فيما يوجب الريبة فلا ينبغي له أن يحققه.

٤- **ظن مندوب إليه** فهو إحسان الظن بالأخ المسلم يندب إليه ويثاب عليه فأما ما روي ف الحديث " احترسوا من الناس بسوء الظن"[١][٢]. فالمراد بالاحتـــراس بحفـــظ المـــال مثل أن يقول: إن تركت بابي مفتوحاً خشيت السراق فليس كل الظن منهياً عنه كما تقدم ولكن أغلبه إثم والظن شيء فـــي طبـــيعة الـــنفس البشرية لا يخلوا منها إنسان ولكن تجب مقاومته وتـــضييقه إلي أبعد حد حتى لا يقع المؤمن في المحظور هذا ويمكن أن ينقسم الظن بالناس إلي قسمين كما قال العلماء:

(ا) سو الظن الذي أثره يتعدي إلي الغير فهذا حرام

(ب) وأما أن ظننت شراً بأحد لتتقيه ولم يتعد ذلك إلي الغير فذلك محمود غير مذموم وعلي هذا يحمل قول بعضهم: حسن الظن ورطة وسوء الظن عصمة وأيضاً يحمل علي ما ورد من أن من الحزم سوء الظن واحترسوا من الناس بسوء الظن وأيضاً الظن بالنسبة للمسلم منه ما هو ممنوع ومنه ما هو مباح.

فالظن الحسن بالمؤمنين هو الأصل الذي ينبغي أن يكون عليه المؤمن وهـــو بالنسبة للمؤمنين المستوري الحال والذين لم يجاهروا بالمعاصي ولم يعـــرف عنهم الوقوع في الكبائر أو المعاصي فإساءة الظن بهذا الصنف من الناس حرام وممنوع وعليه يحمل ما أخرجه البيهقي في شعب الإيمان.

عن سعيد بن المسيب قال: كتب إل بعض إخواني من أصحاب رسول

---

(١) قـــال الالبانـــى فالـــضعيف رواه (طـــى، عد) أورده السيوطى فى الجامع الصغير وعزاه للطبرانـــى فى الأوسط وابن عدى فى الكامل عن أنس وحكم عليه الألبانى بإنه ضعيف جداً، سلسلة الأحاديث الضعيفة للألبانى رقم ١٥٦.

(٢) زاد المسير لابن الجوزى ٧/ ١٨٤ ط بيروت.

الله ﷺ أن ضـع أمر أخيك علي أحسنه ما لم يأتيك ما يغلبك ولا تظنن بكلمة خـرجت مـن امرئ مسلم شراً وأنت تجد لها في الخير محملاً ومن عرض نفـسه للـتهم فلا يلومن إلا نفسه[1]. فطالما المسلم مستور الحال أمامك فلا تظن به إلا خيراً وإن بدر منه ما يسئ أو ما فيه تجاوز فينبغي أن يحمل علي الوجه الحسن.

وأمـا الظـن المـباح فـيكون للمسلم الذي يتعاطي الريب والمجاهرة بالخـبائث وهـذا الـصنف من الناس لا تحرم إساءة الظن به فليس الناس أحرص منه علي نفسه.

قال القرطبي: (وإن شئت قلت: والذي يميز الظنون التي يجب اجتنابها عمـا سـواها أن كل ما لم تعرف له إمارة صحيحة وسبب ظاهر كان حراماً واجـب الاجتـناب وذلك إذا كان المظنون به ممن شهد منه الستر والصلاح وأونـست مـنه الأمانـة الظاهر فظن الفساد به والخيانة محرم بخلاف من اشتهره الناس بتعاطي الريب والمجاهرة بالخبائث وعن النبي ﷺ أن الله حرم مـن المـسلم دمه وعرضه وأن يظن به ظن السوء[2]. وكيف يظن بالمسلم السوء وحرمته عند الله أشد من حرمة الكعبة) [3].

روي ابـن ماجة عن ابن عمر – رضي الله عنهما – قال: رأيت النبي ﷺ يطوف بالكعبة ويقول: ما أطيبك وأطيب ريحك. ما أعظمك وأعظم حرمتك والـذي نفس محمد بيده لحرمة المؤمن أعظم عند الله حرمة ماله ودمه أن يظن به الأخير[4].

---

(١) الألوسي ١٥٦/٢٦

(٢) رواه مسلم عن أبي هريرة كتاب البر والصلة باب المسلم أخو المسلم.

(٣) القرطبي ٦٣٨٢/٩– ط دار الغد .

(٤) سنن ابن ماجه – كتاب الفتن – باب حرمة دم المؤمن ١٢٩٧/٢

أما الصنف الذي اشتهر بين الناس: بالفسق والمجاهرة بالمعاصي فهذا لا بـــأس من أن يظن به الظن السيء. روي البخاري عن عائشة قالت: قال النبـــي ﷺ ما أظن فلاناً وفلاناً يعرفان من ديننا شيئاً. قال الليث: كانا رجلين من المنافقين[1].

وفي النهي عن الظن ورد حديث الصحيحين عن أبي هريرةﷺ أن النبيﷺ قـــال:" أياكم والظن فإن الظن أكذب الأحاديث ولا تجسسوا ولا تحسسوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله أخواناً ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام"[2].

والظن الذي هو ضد اليقين هو الظن الذي بمعني الكذب والتخرص بخلاف الظن الذي استوي فيه الطرفان أو الظن الذي رجح فيه وجه علي وجه .

أمـــا الظن الذي هو ضد اليقين وهو بمعني الكذب والتخرص فمما كان مـــن عقائد الجاهلية وما نجم عنه من العقائد الضالة و المذاهب الباطلة كما قال تعالي: " يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الحَقِّ ظَنَّ الجَاهِلِيَّةِ"[3]. وقال " وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الـــرَّحْمَنُ مَـــا عَبَدْنَاهُم مَّا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ"[4]. وقال " سَـــيَقُولُ الَّـــذِينَ أَشْـــرَكُوا لَـــوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا من شَـــيْءٍ"[5]. ثم قال " قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَخْرُصُونَ"[6]. أما الظن الذي هو استواء الطرفين أو الذي رجح

---

(١) فتح الباري ٩٥/١٣

(٢) الـــبخاري ٢٣/٨كـــتاب الأدب – باب ما ينهي عن التحاور والتدابر رواه مسلم كتاب البر والصلة – باب تحريم الظن التناجس التناغش ١٩٨٥/٤

(٣) سورة ال عمران بعض آية ١٥٤.

(٤) سورة الزخرف أية ٢٠.

(٥) سورة الأنعام بعض آية ١٤٨.

(٦) سورة الأنعام بعض آية ١٤٨.

فيه وجه علي وجه كمثل الشك في عدد ركعات الصلاة أو عدد مرات الطواف ومعظم الأحكام الفقهية التي لم يرد فيها نص صريح في الحكم مبني علي هذا الظـــن وهـــو مأمور به حلاً لمشكلات المسلمين الفقهية وهو المجال الواسع الـــرحب الذي يعمل فيه الفقهاء عقولهم من أجل هذا كان الاختلاف قائماً بين الفقهـــاء ولكـــل وجهة هو موليها وهذا النوع من الظن قريب من الاستنباط الذي يفهم من النصوص الكلية المطلقة للشريعة الإسلامية .

وكم للظن السيء من مساوئ وكم له من مثالب وعورات إذ به تنقطع الصلات وتضعف العلاقات وتشيع المنكرات ومنه صور متعددة فمنها:

١- ما يكون من ظن في نفوس الأقران والنظراء من الناس عادة من نحو بعـــضهم البعض إذا رأي أحدهم من آخر عملاً فيه وجه محتمل للشر ولو كان بعيداً يسرح ذهنه عليه ويهمل ما يساويه أو يكون أقرب منه إلـــي الـــذهن المعتدل من وجوه الخير والحامل له علي ذلك المنافسة والمناظرة.

٢- اعـــتقاد كثرة الشر وانتشار الفساد بين الناس فيتبرم بهم ويتنكر لهم فـــي كل ما يأتونه ويذرون وهذا يصدر منه عن موجدة في نفسه نحو الناس ويشفي غليلاً كامناً في قلبه نحو نظرائه وأكفاءه وهو إذا فتشت فـــيه وجـــدت أنـــه نوع تقديس للنفس واعتقاد الرجحان فيه علي كل الـــناس وتلك هي الأنانية المفرطة حتى وإن خيل إلي صاحبها أن ذلك غيـــره علـــي الخلـــق والدين والمجتمع وما أدق مسالك الشيطان من الإنسان وما أبصره بتصوير الشر بصورة الخير.

فعلـــي المـــؤمن العاقل البصير تجنب هذه الأنواع من الظنون وغيرها حتى يعيش سعيداً في الدنيا والآخرة.

وقـــوله تعالي " إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ " تعليل للأمر باجتناب الظن والمراد بهـــذا الـــبعض المذمـــوم من الظن ما عبر عنه سبحانه وتعالي من قوله "

اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ " ويجوز أن يكون قوله " إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ " استئناف بياني لقوله اجتنبوا كثيراً من الظن كأن السامع استوقف ليتطلب البيان فأعلمهم أن بعض الظن أثم وهو كناية عن وجوب التأمل في آثار الظنون المترتبة عليها.

ومعني كون " بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ " ذلك إما أن ينشأ عن الظن عمل أو هو مجرد اعتقاد فإن ترتب علي الظن عمل من قول أو فعل كالغيبة والتجسس وغير ذلك فليقدر الظان أن ظنه كاذب ثم ليتفكر ويتأمل في عمله الذي بناه علي الظن فيجده قد عامل به من لا يستحق تلك المعاملة من اتهام بالباطل أو ظن في غير موضعه. أما إذا لم ينشأ عليه إلا مجرد الاعتقاد القلبي فقط دون عمل باللسان أو بالجوارح فلقدر أن ظنه كان مخطأ فيجد نفسه قد اعتقد في أحد ما ليس فيه فإن كان اعتقاداً في صفات الله وافعاله فقد افتري عل الله أما إن كان اعتقاده في أحوال الناس فقد خسر الانتفاع بما ظنه ضاراً، وخسر الاهتداء بمن حسبه ضالاً " وخسر العلم ممن ظنه جاهلاً إلي ما ذلك " وأما – والعياذ بالله – إن صار الظن الباطل تديناً للمسلم وصفة راسخة فيه فإن ذلك يسهل الآثار المترتبة علي ذلك فتصادف من هو جدير بضد ذلك الظن فيدخل تحت قوله تعالي" أَن تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ "[1]. ويدخل تحت قوله تعالي أيضاً : " وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَاناً وَإِثْماً مُّبِيناً "

قال ابن كثير (ينهي الله عبادة المؤمنين عن كثير من الظن وهو التهمة والتخون للأهل والأقارب والناس في غير محله لأن بعض ذلك يكون إثماً محصناً فليجتنب كثيراً منه احتياطاً عن حارثه بن النعمان قال: قال رسول الله ﷺ ثلاث لازمات لأمتي : الطيرة والحسد وسوء الظن)

---

(١) سورة النور ٥٨

فقـــال رجـــل: ما الذي يذهبهن يا رسول الله ممن هن فيه؟ قال ﷺ إذا حسدت فاستغفر الله وإذا ظننت فلا تحقق وإذا تطيرت فامض[1].

وقـــوله تعالي " وَلاَ تَجَسَّسُوا " قال ابن الأثير التجسس بالجيم هو التفتيش عـــن مـــواطن الأمـــور وأكثـــر مـــا يقال في الشر والجاسوس صاحب سر الشر والناموس صاحب سر الخير وقيل: إن معناها واحد في تطلب معرفة الأخبار وقيل التجـــسس بالجيم أن يطلبه لغيره وبالحاء أن يطلبه لنفسه وقيل بالجيم البحث عن العورات وبالحاء الاستماع وقيل معناهما واحد في تطلب معرفة الأخبار[2].

والتجـــسس هـــو الخطـــوة الثانية من المناهي الثلاث في الآية إذ هو الخطـــوة المتـــرتبة عل سوء الظن وهو من الكبائر عند العلماء إذ هو تتبع عورات المسلمين ومعايبهم واستكشاف ما ستروه.

عن أبي برزه الأسلمي قال: قال رسول الله ﷺ يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم فإن من تتبع عوراتهم تتبع الله عورته ومن تتبع الله عورته يفضحه في عقر بيته. [3].

والذي يجب للمسلم علي المسلم ألا يتجسس عليه بل إذا رأي شيئاً منه وهو المستور الحال عليه أن يستره ولا يفضحه روي الإمام أحمد عن دخين كاتب عقبه قال: قلت لعقبه إن لنا جيرانا يشربون الخمر وأنا داع لهم الشرط فـــيأخذونهم فقال له عقبة: ويحك لا تفعل إني سمعت رسول الله ﷺ يقول من ستر عورة مؤمن فكأنما استحيا موءودة من قبرها[4].

---

(١) ابن كثير ٢١٣/٤ط الحلبي والحديث بهامش فتح البارى ١٣/ ٩٣.

(٢) النهاية لابن الأثير ٢٧٢/١بتصرف.

(٣) رواه أبو داود – كتاب الأدب باب الغيبة ١٩٤/٥رقم ٤٨٨٠ وسكت عنه.

(٤) رواه البخارى فى الأدب المفرد ٢٢٧/٢رقم ٢٥٨، ورواه أبو داود كتاب الأدب باب الستر علـــى المـــسلم ، قـــال أبو داوود وروى عن الليث فى هذا الحديث لا تفعل ولكن عظهم وتهددهم ٥٧١/٢ ط الحلبى، واورده ابن حبان فى صحيحه ٣٦٧/١.

هـذا والمقصود من النهي عن تتبع العورات والبحث عن المساوئ إذا كـان المـراد تتـبعها والـبحث عـنها بقصد الإشاعة والتشنيع والاحتقار والانـتقاص وما يماثل هذه الأغراض السيئة أما بحث المربي والمعلم عمن يلـي أمـره ويقوم علي تأديبه وكذا بحث الراعي عن رعيته لاقتلاع الجرائم والقـضاء علـيها فلـيس موضع نهي بل هو مطلوب أيماً طلب وذلك كما يقولون في ضرب اليتيم تأديباً وضربه إيذاء فالأول حسن مأمور به والثاني قبـيح منهـي عـنه ومرجع ذلك النية فإنما الأعمال بالنيات حتى أنه ليجوز التجسس إذا دعت إليه مصلحة شرعية كمن يريد قتل نفس لحماية من يريد قتله وكذا يكون التجسس مباحاً في حالة تقصي أخبار العدو وكشف خططهم ومؤامرتهم وكذا ما يؤدي إلي الحفظ العام.

يقول الأستاذ الدكتور / أحمد محرم الشيخ ناجي : (لكن ينبغي ألا يؤخذ في ذلك بمجرد الريبة وألا يؤدي التتبع إلي ارتكاب محظور وما أكثر ما يرتكب من إهـدار للكـرامات وتضييع للحريات وارتكاب للمنكرات باسم التتبع والتجسس لـصالح الأمن العام وكم من بريء اتهم بجريرة غيره وكم من مظلوم شددت عليه العقوبة جرياً وراء الريبة واتباعاً للهوي وبئس من مطاع)

فالأصـل أن المـسلم بريء ما لم تثبت إدانته فإن ثبتت أدين بمقدار إدانـته فقـط "[1]. فعد زيد بن وهب قال: أتي ابن مسعود فقيل له هذا فلان تقطر لحيته خمراً فقال عبد الله أنا قد نهينا عن التجسس ولكن إن يظهر لنا شيء ونأخذ به"[2].

---

(١) وقفـات مفـيدة أمام توجيهات نبوية سديدة أ.د / أحمد محرم الشيخ ناجي ٩٣ ط الصفا والمروة ، أسيوط

(٢) أبو داود ، كتاب السنة، باب فى النهى عن التجسس، ص ٥٧، وسكت عنه ط١، الحلبى، ورواه البخارى فى الأدب المفرد ، باب الانبساط إلى الناس، ص ٣٩.

وأما ما روي أن عمر بن الخطاب ﷺ كان يمر بالمدينة يتعرف أحوال الرعية فسمع صوت رجل في بيت يتغني فتسور عليه فوجد الخمر أمامه: يا عدو الله أظننت أن الله يسترك وأنت علي معصيته؟ فقال الرجل: يا أمير المؤمنين إن كنت عصيت الله في واحدة فقد عصيت الله في ثلاث قال الله ولا تجسسوا قد تجسست وقال تعالي واتوا البيوت من أبوابها وقد تسورت وتسلموا علي أهلها وقد دخلت بغير إذن.

أقول أني لم أقر هذه القصة في كتاب موثق وعلي فرض صحتها فليس للرجل وجه في الإنكار علي عمر لأنه الراعي وهو أمير المؤمنين وله أن يطالع رعيته فيقوم المعوج ويشبع الجائع ويري ويسمع بنفسه مشاكل الرعية من غير أن يكون التجسس في نيته.

وقوله تعالي " وَلاَ يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً " هذه هي الخطوة الثالثة وهي ثالثة المناهي في الآية الشريفة وهي النهي عن الغيبة وهي أن تذكر الرجل بما فيه فإن ذكرته بما ليس فيه فهو البهتان وقد ثبت هذا في حديث مسلم عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: أتدرون ما الغيبة؟ قالوا : الله ورسوله أعلم قال: ذكرك أخاك بما يكره قيل أفرأيت إن كان في أخي ما أقول قال: إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته وإن لم يكن فيه فقه بهته[1].

وأصل الغيبة: العيب في الغيب ولكن هي حرام في الحضور وفي الغيبة أما للتوسع في إطلاق لفظ الغيبة وإما لجمع العملين في حكم واحد بطريق القياس.

وإنما قال تعالي" وَلاَ يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً " دون أن يقول اجتنبوا الغيبة لقصد التوطئة للتمثيل الوارد في قوله " أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً "

---

(١) رواه مسلم كتاب البر والصلة – باب تحريم الغيبة ٤/٢٠٠١وأبو داود كتاب الأدب – باب في الغيبة ٥/١٩٢

لأنه لما كان ذلك التمثيل مشتملاً علي جانب فاعل الاغتياب ومفعوله مهد له بما يدل علي ذاتين لأن ذلك يزيد التمثيل وضوحاً قال الحسن: " الغيبة ثلاثة أوجـــه كلها في كتاب الله الغيب والإفك والبهتان فأما الغيبة فهو أن تقول في أخـــيك مـــا هو فيه ، وأما الإفك فهو أن تقول فيه ما بلغك عنه وأما البهتان فهو أن تقول فيه ما ليس فيه"[1].

وقـــوله تعالي " أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ " تقرير للحكـــم وحمـــل علي امتثال ذلك النهي بهذا التعقيب الذي ضربه له مثلاً من جعله بمنزلة أكل اللحم فإن من مزق عرض إنسان فكأنما مزق لحمه ونهشه نهـــشاً أليس اللحم يستر ما وراءه من العظم فإذا مزق انكشف ستره وكذلك قـــرض الأعـــراض فـــيه كشف الستر عما يحب الإنسان ستره ثم في نهش الأعـــراض من قبل النفوس الشرسة واستمرائها ولقد أبدع هذا الأسلوب في التنفيـــر مـــن ذلك الأمر الذي كثر الابتلاء به إيما أبدع فقد صوره بمحبة ما حقه أن يكون في غاية الكراهية وهو أكل لحم الأخ وزاده أن صوره بصورة المـــيت وحقـــه أن يكون منه أنفر ومشابهته له من حيث إن كلاً من الغائب والميت لا يستطيع الدفع عن نفسه.

والتعبيـــر بـــــ " أحدكم " لبيان أن أحداً ما من الناس لا ينبغي له ذلك وكـــيف وهو مع أخيه لا مع عدوه الذي قد يغدر إذا أراد أن يتشفي منه؟ ثم كيف وأخوه ميت لا يستطيع الدفع عن نفسه ولا مقاومة من يهاجمه ولو كان حـــياً يقدر علي المقاومة لالتمس لها لعذر بالمغالبة، هذا إلي إبراز الحكم في معرض الاستفهام لحمل المخاطب علي أن ينطق به ويعترف بقبحه من نفسه كأنـــه أظهـــر مـــن أن يذكر لك وإنما يكتفي أن يلفت إليه نظرك لتعرفه أنت بنفسك.

---

(١) القرطبي ٩/٦٣٨٥ ط دار الغد

قـــال الزمخـــشري مـــا ملخصه: " أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَـــرِهْتُمُوهُ " تمثـــيل وتصوير لما يناله المغتاب من عرض غيره على أفظع وجه وأفحشه وفيه مبالغات شتى ومنها الاستفهام الذي معناه التقرير ومنها جعل ما هو الغاية في الكراهة موصولاً بالمحبة ومنها إسناد الفعل إلي أحدكم والإشـــعار بأن أحداً من الأحدين يحب ذلك ومنها أنه سبحانه لم يقتصر علي تمثيل الاغتياب بأكل لحم الإنسان وإنما جعله

أخاً ومنها أنه لم يقتصر علي أكل لحم الأخ وإنما جعله ميتاً[1].

قال الشوكاني وفيه إشارة إلي أن عرض الإنسان كلحمه وإنه كما يحرم أكـــل لحمـــه يحـــرم الإســـتطالة في عرضه وفي هذا من التنفير من الغيبة والتوبـــيخ لها والتوبيخ لفاعلها والتشنيع عليه ما لا يخفي فإن لحم الإنسان مما تنفر من أكله الطباع الإنسانية وتستكرهه الجبلة البشرية فضلاً عن كونه محرماً شرعاً[2].

قـــوله تعالـــي " فكرهتموه " هو من إصدار الحكم عليه حسبما وقر في النفوس السليمة والفاء فصيحة أي أنها أفصحت عن كلام مقدر وكأن التقدير إن يفعـــل ذلك أحد فقد كرهتموه وتغيير الأسلوب من هذا الوجه من المبالغة في التنفير بعد أن عرض الأمر علي نفس المنهي وخوطب بما يستخلص منه الحكـــم بإقراره واعترافه وهو أنه لا يحب أحد ذلك فهو مكروه بغيض فهذا الحكـــم مما لا تستريح له نفس ولا يقبله عقل والتصريح بالكراهية أشد من نفي المحبة والسبب في تأكيد هذا النفي هو ما يتفشي ويكثر بين الناس غالباً ويغفل الكثير عما فيه من المساوئ والقبائح.

وقـــوله تعالي :" اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ " هذا هو البلسم الشافي والدواء الناجح لكل أدواء النفوس وأمراضها تقوي الله عز وجل هي السياج

---

(١) تفسير الكشاف ٣٧٣/٤

(٢) فتح القدير للشوكاني ٨١/٥ ط دار المعرفة – لبنان

المنـــيع الذي يمنع صاحبه من الوقوع في المعاصي والآثام وهو الملاذ الذي يلـــوذ إليه المؤمن ويجعل تقوي الله أمامه تنهاه عما نهي الله وتأمره بما به أمر الله.

وهـــو سبحانه تواب أي كثير التوبة لمن التجأ إليه ولاذ به وهي علي وزن فعـــال صـــيغة مـــبالغة أما لأن الله كثير التوب لمن تاب أو لكثرة هذه الذنـــوب وكثـــرة مرتكبيها فعبر الله سبحانه وتعالي بهذه الصيغة وكذا رحيم علـــي وزن فعيل أي كثير الرحمة لمن استرحمه ولمن تاب وأناب ورجع إلي الله عز وجل

الغيبة حكمها وأسبابها وعلاج كل سبب وصور الغيبة وأنواعها وكيفية التوبة منها:

الحـــق أن الغيبة من الكبائر بدليل هذه الآية ولقوله ﷺ " كل المسلم علـــي المـــسلم حرام دمه وماله وعرضه[1]" فقد جمع العرض إلي الدم إلي المـــال في حكم واحد ولاشك في أن التعدي عليهما كبيرة فكذلك العرض قال تعالي " وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلاَ تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَداً وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ "[2].

بـــل ربمـــا يتـــساهل المرء في المال ولا يتساهل في العرض وربما تسامح الرجل فيما أصاب بدنه ولا يتسامح فيما أصاب عرضه ولله در القائل:

أصون عرضي بمالي ولا أدنسه ... لا بارك الله بعد العرض في المال

احتال للمال إن أودي فأجمعه ... ولست للعرض إن أودي بمحتال

وصدق من قال:

جرحات السنان لها التئام ... ولا يلتام ما جرح اللسان

---

(١) رواه مسلم كتاب البر والصلة باب المسلم أخو المسلم.

(٢) سورة النور ٤

ومن العلماء من اعتبرها صغيرة متعللا بأمرين الأول فشوها في الناس والثاني: ما ورد أنه ﷺ مر علي قبرين يعذبان فقال عمن فيهما أنهما يعذبان ومـــا يعـــذبان في كبير أما أحدهما فكان لا يستتر من بوله وأما الثاني فكان يخوض في أعراض الناس" وفي رواية كان يمشي بالنميمة[1]. ولا حجة في الدليلـــين المذكورين فإن الأول فإن شيوع المعصية لا يغير من حكمها مهما فشا فاعلوها وأما الثاني فمعني وما يعذبان في كبير أنهما لم يكونا مرتكبين مـــا يكبـــر عليهما تركه ويشق عليهما اجتنابه والتخلص منه لو أرادا فليس الاستبراء من البول والتنزه عن النجاسة من التكاليف المرهقة الشاقة وليس ترك أعراض الناس بدون نهش مما يتعاصي علي ذوي النفوس الكريمة.

أسباب الغيبة وعلاجها:

قـــد ورد في كتاب إحياء علوم الدين لحجة الإسلام الإمام الغزالي في ربع المهلكات أسباب الغيبة وعلاجها وها أنذا وأردها بتلخيص وتصرف:

١- أن يـــشفي الغـــيظ وذلك إذا جرى سبب غضب به فإنه إذا هاج غضبه يشتفي بذكر مساوية فيسبق اللسان إليه بالطبع إن لم يكن ثم دين وازع فالحقد والغضب من البواعث العظيمة علي الغيبة.

وعلاج هذا السبب علي وجهين:

أحدهما عل الجملة والآخر علي التفصيل أما علي الجملة فهو أن يعلم المغـــتاب أن يتعـــرض لسخط الله، وأن يعلم أن الغيبة محبطة لحسناته يوم القيامة فإنها تنقل إلي من اغتابه فإن لم تكن له حسنات نقل إليه من سيئات الـــذي اغـــتابه فاضـــيفت إلي المغتاب ثم يؤمر به في النار ثم هو بعد ذلك يتعرض لمقت الله ومشبه عنده بأكل الميتة وأيضاً من العلاج الإجمالي للغيبة أن يتدبـــر المغـــتاب في نفسه فإن وجد فيها عيباً اشتغل بعيب نفسه وطالما

---

(١) رواه مسلم كتاب الوضوء باب الاستبراء والاستتار من البول.

وجد في نفسه عيباً فينبغي أن يستحيي من أن يترك ذم نفسه ويذم غيره بل ينبغـي أن يتحقق أن عجز غيره عن نفسه في التنزه عن ذلك العيب كعجزه وهذا إن كان ذلك العيب بفعله واختياره أما إن كان العيب بغير اختياره وهو أمـر خلقـي فالذم له ذم للخالق فإن من ذم صنعة فقد ذم صانعها قال رجل حكـيم يا قبيح الوجه قال: ما كان خلق وجهي إلي فأحسنه وأما علاج الغيظ والغضب فهو أن يقول المغتاب لنفسه إني إذا أمضيت غضبي عليه فلعل الله يمـضي غـضبه علـي بـسبب الغيـبة إذ نهاني عنها فاجترأت علي نهيه واسـتخففت بزجره قال: ﷺ من كظم غيظه وهو يقدر علي أن يمضيه دعاه الله يوم القيامة علي رؤوس الخلائق حتى يخيره في أي الحور شاء[1].

٢- موافقة الإقران ومجاملة الرفقاء ومساعدتهم علي الكلام فإنهم إذا كانوا يـتفكهون بذكـر الأعـراض فيري أنه لو أنكر عليهم أو قطع المجلس استثقلوه ونفروا عنه فيساعدهم علي ذلك ويراه من حسن المعاشرة

وعلاج هذا السبب: أعلم أن الله تعالي يغضب عليك إذا طلبت سـخطه فـي رضـا المخلوقين فكيف ترضي لنفسك أن توقر غيرك وتحقر مولاك فتترك راضه لرضاهم.

٣- إرادة التصنع والمباهاة وهو أن يرفع نفسه بتنقيص غيره فيقول فلان جاهـل وفهمه ركيك وكلامه ضعيف وعرضه في ذلك أن يثبت الفضل لنفسه ويريهم أنه أعلم منه.

علاج هذا السبب:

إذا فعـل هـذا الفعل المغتاب فأنه أبطل فضله عند الله تعالي وحتى لو اعـتقد النـاس فيه وفي فضله فهو علي خطر وربما نقص اعتقادهم فيه إذا عرفوه بثلب الناس فيكون باع ما عند الخالق يقيناً بما عند المخلوقين وهما.

---

(١) أبو داود – كتاب الآداب باب من كظم غيظا ٤٨/٢ط الحلبي، وسكت عنه.

٤- الغيبة لأجل الحسد وهو أنه ربما حسد من يثني الناس عليه خيراً ويحبونه ويكرمونه فيريد زوال تلك النعمة من أخيه فلا يجد لذلك سبيلاً إلا القدح فيه حتى ينتهي الناس من إكرامه وحبه.

وعلاج هذا السبب:

الذي يقع في هذا السبب من الغيبة يكن قد جمع بين عذابين لأنك حسدته علي نعمة الدنيا وكنت في الدنيا معذباً بالحسد فما قنعت بهذا حتى أضفت إليه عذاب الآخرة فكنت خاسراً نفسك في الدنيا وصرت أيضاً خاسراً في الآخرة لتجمع بين النكالين فقد قصدت محسودك فأصبحت نفسك وأهديت إليه حسناتك فإذا أنت صديقه وعدو نفسك إذ لا تضره غيبتك وتضرك وتنفعه إذ تنقل إليه حسناتك أو ينقل إليك حسناته ولا تنفعك.

٥- اللعب والهزل وتضييع والوقت بالضحك فيذكر عيوب غيره بما يضحك الناس علي سبيل المحاكاة ومنشؤه الكبر والعجب.

العلاج:

والقصد من الذي يفعل هذا هو الاستهزاء وإخزاء الغير عند الناس وما دري هذا المسكين أنه بإخزاءه لأخيه أنه يخزي نفسه عند الله والملائكة والنبيين صلي الله عليهم وسلم فلو تفكر في حسرته وجنايته وخزيه يوم القيامة يوم تحمل سيئات من استهزأت به ويساق إلي النار لأدهشه ذلك عن إخزاء صاحبه ولو عرف حاله لكان أولي ان يضحك من نفسه فإنه سخر به عند نفر قليل وعرض نفسه لأن يأخذ يوم القيامة بيده علي ملأ من الناس وسوقه تحت سيئاته كما يساق الحمار إلي النار مستهزءاً به وفرحاً بخزيه ومسروراً بنصرة الله إياه من اغتابه.

أسباب خفية ودقيقة للغيبة قد يقع فيها خواص الناس:

وهذه الأسباب التي هي في الخاصة فهي اغمضها وأدقها لأنها شرور خبأها الشيطان في معرض الخيرات وفيها خير ولكن شاب الشيطان بها الشر.

٦- أن تنبعث من الدين داعية التعجب في إنكار المنكر والخطأ في الدين فيقول ما أعجب ما رأيت من فلان فإنه قد يكون صادقاً ويكون تعجبه من المنكر ولكن كان حقه أن يتعجب ولا يذكر اسمه في إظهار تعجبه فيصير بذلك مغتاباً من حيث لا يدري مثل أن يقول الرجل عجبت من فلان كيف يحب زوجته وهي قبيحة وكيف يجلس إلي فلان الجاهل.

علاج هذا السبب:

واعلم أخي أن التعجب إذا أخرجك إلي الغيبة فتعجب من نفسك ودينك بدين غيرك أو بدنياه وأنت مع ذلك لا تأمن عقوبة الدنيا وهو أن يهتك الله سترك كما هتك ستر أخيك بالتعجب.

٧- الرحمة: وهو أن يغتم بسبب ما يبتلي به أخوه فيقول مكسين فلان قد غمني أمره وما ابتلي به فيكون صادقاً في دعوي الاغتمام ويلهيه الغم عن الحذر من ذكر اسمه فيذكره فيصير به مغتاباً فيكون غمه ورحمته خيراً وكذلك تعجبه ولكنه ساقه الشيطان إلي شر من حيث لا يدري والترحم والاغتمام ممكن دون ذكر اسمه فيهيجه الشيطان علي ذكر اسمه ليبطل به ثواب اغتمامه وترحمه.

العلاج:

أما الرحمة له علي بلاءه فحسن ولكن حسدك أبليس فأضلك واستنطقك بما ينقل من حسناتك إليه ما هو أكثر من رحمتك فيكون خيراً لأثم المرحوم فيخرج من كونه مرحوماً وتنقلب أنت مستحقاً لأن تكون مرحوماً إذ حبط أجرك ونقصت من حسناتك.

٨- الغضب لله تعالي فإنه قد يغضب علي منكر قارفه إنسان إذا رآه أو سمعه فيظهر غضبه ويذكر اسمه وكان الواجب أن يظهر غضبه عليه

بالمعروف والنهي عن المنكر ولا يظهره علي غيره أو يستر اسمه ولا يذكره بالسوء.

العلاج: والغضب لله تعالي لا يوجب الغيبة وإنما الشيطان حبب إليك الغيبة ليحبط أجر غضبك وتصير معرضاً لمقت الله عز وجل بالغيبة.

وعلاج هذه الأسباب مجتمعة:

تتمثل في معرفة الله حق المعرفة فمن قوي إيمانه وقويت معرفته بالله تعالي أنكف لسانه عن الغيبة لا محالة.

الغيبة بالقلب:

وقد تحصل الغيبة بالقلب وذلك بسبب سوء الظن بالمسلمين فليس لك أن تظن بالمسلم شراً فيتغير قلبك من ناحيته إلا إذا انكشف لك أمر لا يحتمل التأويل فإن أخبرك بذلك عدل فمال قلبك إلي تصديقه كنت معذوراً لأنك لو كذبته كنت قد أسأت الظن بواحد وتسيئه بالآخر بل ينبغي أن تبحث هل بينهما عداوة وحسد؟ فتتطرق التهمة حينئذ بسبب ذلك ومن خطر له خاطر سوء علي مسلم فينبغي أن يزيد في مراعاته ويدعو له بالخير فإن ذلك يغيظ الشيطان ويدفعه عنك وإذا تحققت هفوة مسلم فانصحه في السر واعلم من ثمرات سوء الظن التجسس فإن القلب لا يقنع بالظن بل يطلب التحقيق فيشتغل بالتجسس وذلك منهي عنه لأنه يوصل إلي هتك ستر المسلم ولو لم ينكشف لك كان قلبك أسلم للمسلمين.

الأعذار المبيحة للغيبة:

لا يجوز الغيبة في حق المسلم إلا في مواضع ستة وهي:

١- التظلم فإن المظلوم أن يذكر الظالم إذا كان من يغتابه عنده يستطيع أن يعيد إليه الحق.

٢- الاستعانة علي تغيير المنكر ورد الظالم إلي منهاج الصلاح .

٣- الاستفتاء مثل أن يقول للمفتي ظلمني فلان أو أخذ حقي فكيف طريقي في الخلاص فالتعيين مباح والأولي التعريض مثل أن يقول ما تقول في رجل ظلمه أبوه أو أخوه أو نحو ذلك.

والدليل علي إباحة التعيين حديث هند حين قالت لرسول الله ﷺ أبا سفيان رجل شحيح[1] ولم ينكر عليها ﷺ.

٤- تحذير المسلمين مثل أن تري متفقها يتردد إلي مبتدع أو فاسق أو تخاف أن يتعدي إليه ذلك فلك أن تكشف له الحال وكذا لو عرفت من عبدك السرقة أو الفسق فتذكر ذلك للمشتري وكذا المستشار في التزويج وإيداع الإمانة له أن يذكر ما يعرفه علي قصد النصح للمستشير لا علي قصد الوقيعة والدليل أن فاطمة بنت قيس رضي الله عنها قالت أتيت النبي ﷺ فقلت أن أبا جهم ومعاوية خطباني فقال رسول الله ﷺ أما معاوية فصعلوك لا مال له وأما أبو الجهم فلا يضع العصا عن عاتقه[2]. ومعني لا يضع العصا عن عاتقه أى: كثير الأسفار.

٥- أن يكون معروفاً بلقب كالأعرج والأعمش فلا أثم علي من يذكره وإن عدل عن ذلك كان أولي.

٦- أن يكون مجاهراً بالفسق ولا يستنكف أن يذكر به قيل للحسن الفاجر المعلن بفجوره ذكري له بما فيه مخيبة قال: لا ولا كرامة[3].

---

(١) رواه البخاري كتاب النفقات باب وعلي الوارث مثل ذلك ٨٦/٧ومسلم كتاب الأقضية باب قضية هند ١٣٣٨/٣

(٢) رواه مسلم كتاب الطلاق باب المطلقة ثلاثاً لا نفقه لها ١١١٤/٢رقم ١٤٨٠/٣٦

(٣) راجع إحياء علوم الدين ١٤٢/٣وما بعدها ط الحبلي ربع المهلكات

التوبة من الغيبة:

لا شك أن الغيبة كبيرة من الكبائر عند أهل العلم وأن من اغتاب أحداً عليه أن يتوب إلي الله عز وجل وهل يستحل المغتاب قال القرطبي اختلف فيه فقالت فرقة ليس عليه استحلاله وإنما هي خطيئة بينه وبين ربه واحتجت بأنه لم يأخذ من ماله ولا أصاب من بدنه ما ينقصه وقال فرقة هي مظلمة وكفارتها الاستغفار لصاحبها الذي اغتابه واحتجت بما روي عن الحسن قال: كفارة الغيبة أن تستغفر لمن اغتبته وقالت فرقة: هي مظلمة وعليه الاستحلال منها واحتجت بقول النبي ﷺ من كانت لأخيه عنده مظلمة في عرض أو مال فليتحلله منه من قبل أن يأتي يوم ليس فيه دينار ولا درهم يؤخذ من حسناته فإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فيزيد علي حسناته[1]. وقد روي من حديث عائشة أن امرأة دخلت عليها فلما قامت قالت امرأة ما أطول ذيلها فقالت لها عائشة لقد اغتبتيها فاستحليها[2].

قوله تعالي " يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ "

سبب النزول: ساق ابن الجوزي في كتابه زاد المسير ثلاثة أسباب لنزول هذه الآية هي

١- نزلت في ثابت بن قيس وقوله في الرجل الذي لم يفسح له أنت ابن فلانه وقد ورد عن ابن عباس.

٢- لما كان يوم الفتح أمر النبي ﷺ بلالاً فصعد علي ظهر الكعبة فأذن وأراد أن يذل المشركين بذلك فلما أذن قال عتاب بن أسيد الحمد لله الذي قبض أسيداً قبل اليوم وقال الحارث بن هشام أما وجد محمداً غير هذا الغراب

---

(١) رواه البخارى كتاب المظالم ، باب من كانت له مظلمة.

(٢) القرطبي ٦٣٨٧/٩

الأســـود مؤذناً وقال سهيل ابن عمرو إن يكره الله شيئاً يغيره وقال أبو سفيان أما أنا فلا أقول شيئاً فإني إن قلت لتشهدن علي السماء ولتخبرن عني الأرض فنزلت الآية قاله مقاتل.

٣- أن عبداً أسود مرض فعاده رسول الله ﷺ ثم قبض فتولي غسله وتكفينه ودفنه فأثر ذلك علي الصحابة فنزلت الآية[١].

وساق السيوطي سبباً رائعاً قال:

وقـــال ابن عساكر في مبهماته أنها نزلت في أبي هند أمر رسول الله ﷺ بنـــي بياضـــه أن يـــزوجوه امرأة منهم فقالوا يا رسول الله نزوج بناتنا موالينا؟ فنزلت الآية[٢].

وهـــذه الأســـباب المتقدمة كلها معقول لنزول الآية ولا مانع من تحقق أكثـــرها فـــي نـــزول الآية ويمكن أن تكون الآية النازلة تقرر مبدأ عاماً في الإسلام وهو أن التفاضل بين الناس لا يكون بسبب الجنس أو اللون أو اللغة إنمـــا الناس متساوون في أصل الخلقة والتفاضل بينهم يكون بتقوي الله عز ولجل فقط.

مناسبة الآية لما قبلها:

لمـــا بـــين الله تعالي في الآيات السابقة الإشارات العظيمة التي تربط الـــناس بعـــضهم ببعض وتنزع ما في نفوسهم وصدورهم من غل وتجعلهم مـــتوادين متـــساندين وذلـــك في قوله تعالي " يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْراً مِّنْهُمْ ..... الآية " ثم في قوله تعالي " وَلاَ تَجَسَّسُوا وَلاَ يَغْتَب بَّعْـضُكُم بَعْضاً ..... الآية " بين هنا الإرشاد العام الذي يقتلع من النفوس عقيدة بأن بعضهم بأصل خلقته أو بشرف نسبه خير من بعض فوجه الخطاب

---

(١) زاد المسير لابن الجوزى ٧/١٨٥

(٢) أسباب النزول للسيوطي ١٨٢

إلـــي عموم الناس ليرشدهم إلي أصل خلقتهم ومبدأ تكوينهم وأن الجميع من أصل واحد ومن طينة واحدة والذي خلقهم وصنعهم إنما هو الله والواحد.

التفسير التحليلي للآية:

يقـــول الله تعالـــي مخبـــراً للناس أنه سبحانه وتعالي خلقهم من نفس واحـــدة وجعـــل منها زوجها وهما آدم وحواء وجعلهم شعوباً وهي أعم من القبائل وبعد القبائل مراتب أخرى كالفصائل والعشائر والعمائر والأفخاذ وغير ذلـــك كقـــوله تعالي " يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً"(١).

قال ابن كثير:

فجمـــيع الـــناس في الشرف بالنسبة للطينة إلي آدم وحواء عليهما السلام سواء وإنما يتفاضلون بالأمور الدينية وهي طاعة الله تعالي بعد النهي عـــن الغيبة واحتقار بعض الناس بعضاً منبهاً علي تسويهم في البشرية " يَا أَيُّهَـــا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا "(٢). وهـــو الـــنداء الخامس في السورة وهو النداء الأخير في السورة وهو يقرر حقـــيقة ينبغـــي أن يعيها المؤمنون " إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى " فأنتم أيها الناس مؤمنين وغير مؤمنين أخوة في الإنسانية لأنكم من طينة واحدة علي أي شيء يكون التفاضل وبأي شيء يكون التفاخر.

يقول الأستاذ الدكتور/ محمد محمود حجازي

وهـــذه الديمقـــراطية الـــصحيحة وهكذا تحطيم الفروق والطبقات أما الديمقراطية الكاذبة التي ما مازالت تفرق بين الأجناس والألوان كما نرى في

---

(١) سور النساء ١

(٢) ابن كثير ٤/٢٢٠

أمـــريكا اليوم فشيء لا يقره الدين الإسلامي الذي أصبح وللأسف مضغة في أفواه جنود أمريكا وأعوانها من مبشرين وملاحدة[1].

وكان النداء بـــ " يا أيها الناس " دون المؤمنين مراعاة للمناسبة بين الـــنداء وبـــين الغرض من النداء تذكير الناس كلهم فأصلهم الواحد وهو آدم والذي خلقت منه حواء ويجوز أن يكون المراد من الذكر والأنثي صنف الذكر والأنثي أي كل واحد مكون من الذكر والأنثي.

وقوله تعالي: " إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ " أي أنما تتفاضلون عند الله بالـــتقوي لا بالأحـــساب ولا الأنساب ولا بالأشكال ولا الألوان ولا بالجنسيات وبـــذلك علم الرسول ﷺ الناس أن التفاضل أصله التقوي فعن أبي هريرة ﷺ قـــال : ســـئل رسول الله ﷺ أي الناس أكرم؟ قال: أكرمهم عند الله أتقاهم[2].

وعـــن ابن عمر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ " يا أيها الناس إن الله تعالي قد اذهب عنكم عيبة الجاهلية وتعاظمها بآبائها فالناس رجلان رجل بر تقي كريم علي الله تعالي ورجل فاجر شقي هين علي الله تعالي إن الله عز وجل يقول: " يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ " ثم قال رسول الله ﷺ أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم[3].

وروي مـــسلم عـــن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ " إن الله لا ينظر إلي صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلي قلوبكم وأعمالكم "[4].

---

(١) التفسير الواضح ٣/٥١١ط دار التفسير للطبع و النشر.

(٢) البخاري كتاب التفسير باب سورة يوسف ٦/٦٢.

(٣) التـــرمذي في تفسير سورة الحجرات ٥/٦٤رقم ٣٣٢٤، وأخرجه أبو داود وكتاب الأدب باب التفاخر بالأحسان وسكت عنه ٢/٦٢٤ ط الحلبى.

(٤) مسلم كتاب البر والصلة والأدب باب تحريم ظلم المسلم ٤/١٩٩٧

ولله در القائل:

الناس من جهة التمثيل أكفاء	أبوهم آدم والأم حـــــواء
نفس كنفس وأرواح مشاكل	وأعظم خلقت فيهم وأعظاء
فإن يكن لهم من أصلهم حسب	يفاخرون به فالطين والمـــاء
ما الفضل إلا لأهل العلم أنهم	علي الهدي لمن استهدي أدلاء
وقدر كل امرئ ما كان يحسنه	وللرجال علي الأفعال سيماء
وضد كل امرئ ما كان يجهله	والجاهلون لأهل العلم أعداء[1].

والـتقوي بمعـناها الشامل وهي مراعاة حدود الله تعالي أمر ونهياً والاتـصاف بما أمر الله به أن يوصف والتنزه عما نهي الله عنه وقد وردت أحاديث كثيرة في فضل التقوي وكذلك آيات القرآن كثيرة ومتعددة في الحث علي التقوي وصفات المتقين ومنها قوله تعالي: " إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ "[2].

وقوله تعالي" إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ "[3]. إلي غير ذلك من الآيات الكثيرة

أمـا الـسنة فبالإضافة إلى ما سبق ما ورد من قوله حين سئل ﷺ أي الناس أكرم؟ قال أكرمهم عند الله أتقاهم قالوا: ليس عن هذا نسألك قال فأكرم الناس يوسف نبي الله ابن نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله قالوا ليس عن هـذا نـسألك قـال عـن معادن العرب تسألوني؟ قالوا: نعم قال خياركم في

---

(١) هـذا الـشعر منسوب إلى الإمام على كرم الله وجهه أنظر تفسير البحر المديد فى تفسير القرآن المجيد لابن عجيبه ١٨٢/٧ ط التوفيقية.

(٢) سورة التوبة ٤

(٣) سورة النحل ٤

الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا "[1]. إلي غير ذلك من الأحاديث التي لا تعد كثيرة.

وقــوله تعالــي " إن الله عليم خبير تذييل مناسب للآية وهو يفيد أن التقوي ومحلها القلب أمر قد يخفي علي الناس والله عز وجل عليم بما تخفي الــضمائر وما تستره الصدور وفي التذييل أيضاً إشارة أن السخرية بالناس ولمــزهم وســوء الظــن بهم قد تكون قلوب المسخور منهم أو الملموزين بالألقــاب ما في قلوب الناس لتغير رأيهم وهذا ما يشير إليه قوله تعالي " لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ ..... الآية

والآية تفيد عدم الاعتبار في الأحساب والأنساب والاعتداد كل الاعتداد يكون بالتقوي .

قال الرازي:

ســمعت أن بعــض الــشرفاء في بلاد خراسان كان في النسب أقرب الــناس إلي علي كرم الله وجهه غير أنه كان فاسقاً وكان هناك مولي أسود تقدم بالعلم والعمل ومال الناس إلي التبرك به فاتفق أنه خرج يوماً من بيته يقــصد المــسجد فاتــبعه قــوم فلقيه الشريف سكران وكان الناس يطردون الشريف ويبعدونه عن طريقه فغلبهم وتعلق بأطراف الشيخ وقال له يا أسود الحوافــر والشوافر يا كافر بن كافر أنا ابن رسول الله أذل وتجل وأذم وتكرم وأهــان وتعان فهم الناس بضربه فقال الشيخ بيضت باطني وسودت باطنك فيري الناس بياض قلبي فوق سواد وجهي فحسنت وأخذت سيرة أبي فراني الخلق في سيرة أبيك ورأوك في سيرة أبي فظنوني ابن أبيك وظنوك ابن أبي فعملوا معك ما يعمل مع أبي وعلموا معي ما يعمل ما أبيك "[2].

---

(١) البخارى كتاب الأنبياء باب قوله : واتخذ الله ابراهيم خليلا.

(٢) تفسير الرازي ٤٠٢/١٤

وقــد طبق المجتمع الأول هذا الخلق الكريم طبقوه في العلم وطبقوه فــي الــنكاح فإن العلم متاح أمام كل المسلمين بل متاح لكل الإنسانية بدون فوارق بين العرب وعجم أو بين نسيب وغير نسيب

يقول أ.د/ عبد العزيز كامل:

(وفي مجال العلم لم يجعل هذا الدين قاصراً علي العرب مهد الرسالة وإنما صار الفقه في معظم البلاد الإسلامية بعد وفاة العبادلة الأربعة إلي غير العرب فكان فقه أهل مكة وإمام الحرم هو عطاء بن أبي رباح الذي كان في ســواد الغــراب أعرج أفطس الأنف يقول الأوزاعي فقيه الشام: كان عطاء أرضــي الــناس عــند الناس وقدم ابن عمر مكة فسألوه فقال: تجمعون لي المــسائل وفيكم بن أبي رباح وكان طاووس إمام اليمن ويحيي بن كثير فقيه أهــل الــيمامة والحــسن البصري فقيه البصرة ومكحول فقيه الشام وعطاء الخراساني، وسعيد بن المسيب فقيه المدينة الذي رفض أن ينكح كريمته لولد الخليفة الأموي وزوجها من أحد تلاميذه رأي أنه أتقي من ولد الخليفة) [1].

أمــا في الــنكاح فقــد اخــتلف العلماء في اعتبار الكفاءة في النسب وجماهير أهل العلم تسقط الكفاءة في النسب وظاهر الآية معهم وما ورد من أخــبار وما وقع من كبار الأمة يسقط هذه الكفاءة في النسب التي لم يقل بها إلا الأحــناف ومعهم نفر قليل أما جماهير أهل العلم فمشوا علي ظاهر قوله تعالي " إنما المؤمنون أخوة"

قال القرطبي ما ملخصه:

وقــال أبو حنيفة والشافعي يراعي الحسب والمال وفي الصحيح عن عائــشة أن أبا حذيفة بن عتبه بن ربيعة وكان ممن شهد بدراً مع النبي ﷺ تبنــي ســالماً وأنكحه هنداً بنت أخيه الوليد بنت عتبة بن ربيعة وهو مولي

---

(١) الإسلام والتفرقة العنصرية، د/ عبد العزيز كامل ٤٥، ط مكتبة الأسرة.

لامـــرأة من الأنصار وضباعة بنت الزبير كانت تحت المقداد بن الأسود قلت: أي القرطبي وأخت عبد الرحمن بن عوف كانت تحت بلال وزينب بنت جحش كانت تحت زيد بن حارثة فدل علي جواز نكاح الموالي العربية وإنما تراعي الكفاءة في الدين وقد خطب سلمان إلي إبي بكر ابنته فأجابه وخطب إلي عمر ابنـــته فالـــتوي علـــيه ثم سأله أن ينكحها فلم يفعل سلمان وخطب بلال بنت البكيـــر فأبي أختها من أجل بلال فبلغهم الخبر فأتوا أختهم فقالوا: ماذا لقينا مـــن سببك فقالت أختهم أمري بيد رسول الله ﷺ فزوجوها قال القشيري وقد يعتبـــر النسب في الكفاءة في النكاح وهو الاتصال بشجرة النبوة أو بالعلماء الـــذين هـــم ورثة الأنبياء أو المرموقين في الزهد والصلاح والتقي المؤمن أفضل من الفاجر النسيب فإن كانا تقيين فحينئذ يقدم النسيب منهما كما يقدم الشاب علي الشيخ في الصلاة إذا استويا في التقوي[1].

ما يؤخذ من الآيات من عبر ومواعظ:

إن من يقرأ هذه الآيات الكريمات ليتبين له بما لا يدع مجالاً للشك كيف عـــالج القـــرآن أمـــراض بعض القلوب ليحمي الأخوة الدينية صافية نقية لا يشوبها شيء ينال منها وذلك يتمثل في الآتي:

١- حـــرمت الآيـــات الـــسخرية مـــن المؤمنين وهي رزيلة تغضب الرحمن وترضـــي الـــشيطان وتثير كوامن الفتن وتقوي بواعث الشر وهي دليل خـــبث الطوية وسوء السريرة كذا لا يصح لنساء أن يسخرون من نساء عـــسي أن يكـــن خيـــراً منهن فالمسخور منه غالباً يكون عند الله أفضل وأكرم من الساخر.

٢- أن المؤمنـــين كالجسد والواحد حتى كأنه من لمز غيره وعابه فقد لمز نفـــسه ولعـــل المعني أنك تلمز نفسك بسبب لمزك لغيرك وكذا لا ينبغي لمـــؤمن أن يتنابز بالألقاب مع إخزانه المؤمنين وكان اللقب السيء الذي

---

(١) القرطبي ٩/٦٣٩٥وما بعدها ملخصاً

يكـــرهه صاحبه حجر تنبذه في وجه أخيك فينبزك هو بمثله ويلاحظ في هـــذه الأيـــة أن الله تعالي بدأ بالأهم وهي السخرية وهي الأم في الإيذاء ولها دواع متعددة منها الرغبة في جلب السرور للحاضرين ومنها الحسد الكامن في النفس والعياذ بالله ومنها حب التظرف ثم تثني الله بالنهي عن اللمـــز لمـــا فيه من إشارة وخفاء وصاحبه قد يستخف به ثم كان النهي الـــثالث وهو التنابز بالألقاب وهو اخفها وهاتيك الثلاثة السخرية واللمز والتنابز بالألقاب من الأمراض الفتاكة التي تحول المجتمع من متآلف إلي مجتمع متفرق وتحوله من القوة والحب إلي الضعف والكره والبغض من أجل هذا حرم الإسلام هاتيك الثلاثة.

٣- النهي عن ثلاثة أمور هي مترتبة علي ما قبلها وهي:

أ) الظن ب) التجسس ج) الغيبة

وكلها يؤدي إلي تفسخ مجتمع المؤمنين والفت في عضده وهي أمراض منتشرة يروج لها الشيطان ويدعو الناس إليها لكن المؤمن العاقل المتقي يبتعد عن مثل هذه الأشياء لأن الله حرمها وحتى يسعد في دنياه وأخراه.

٤- الـــناس سواسية كأسنان المشط لا فضل لعربي علي أعجمي إلا بالتقوي وهو مبدأ هام تقرره السورة الشريفة فلا عنصرية في الإسلام بل الناس جميعاً علي قدم المساواة والفرق الوحيد الذي به يتفاضلون ويكرمون في الدنـــيا والآخرة هو تقوي الله عز وجل ومراعاة حدوده والمحافظة علي فرائـــضه وتحـــصيل كل شيء نافع من ذكر ودعاء وجهاد في سبيل الله ودعـــوة إلـــي الله ورســـوله هذا هو مقياس التفاضل لا غير وقد سبق الإســـلام الدنيا كلها في المساواة بين الناس وأعطي للفرد حقوقه وبين واجباته أعطاه حقوقه المادية والإنسانية وكرمه أيما تكريم قال تعالي: " وَلَقَـــدْ كَـــرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً"(١).

---

(١) سورة الإسراء، آية ٧٠.

خاتمـــــة

الحمد لله رب العالمين وولى الصالحين وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شـــريك لـــه وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله النبي المجتبى والرسول المصطفى ﷺ وعلى آله وصحبه أجمعين ..... أمين وبعد ،،،

فهـــذا بحث بعنوان "شذرات من سورة الحجرات" ، سلطت فيه الضوء علـــى هاتيك الآداب الرفيعة والتعاليم القومية التي ينبغي أن تنتشر بين أفراد الأمـــة الإسلامية وهي تعاليم – قطعاً – جالبة للحب بين المؤمنين مبعدة عن الكـــرة والبغضاء بينهم أرجو الله أن أكون قد وفقت في بيانه وشرحه وصلى الله علـــى ســـيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم – سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا اله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك .

قائمة بأسماء المراجع

١) القرآن الكريم جل ما أنزله
٢) إحياء علوم الدين للإمام الغزالي
٣) الآداب الإسلامية في سورة الحجرات أ.د / محمود مهني
٤) أسباب النزول للسيوطي
٥) الإسلام والتفرقة العنصرية د/ عبد الله كامل
٦) تفسير ابن كثير
٧) تفسير الألوسي
٨) التفسير الوسيط أ.د / محمد سيد طنطاوي
٩) زاد المسير لابن الجوزي
١٠) سنن ابن ماجة
١١) صحيح البخاري
١٢) صحيح مسلم
١٣) فتح القدير للشوكاني
١٤) فقه السنة للشيخ سيدنا سابق .
١٥) القرطبي
١٦) الكشاف للزمخشري
١٧) مسند أبو داوود
١٨) مسند الإمام أحمد
١٩) مشكل الآثار للطحاوي .
٢٠) المغني عن حمل الأسفار في الأسفار للحافظ العراقي.
٢١) مفاتيح الغيب للرازي
٢٢) المفردات للراغب الأصفهاني
٢٣) النهاية لابن الأثير
٢٤) وقفات مفيدة أمام توجيهات نبوية أ.د-/ أحمد محرم الشيخ ناجي .